سرديات الخطاب القرآني

٢

# خطاب القرآن في سورة الرحمن

د. محمد مشرف خضر

أستاذ النقد الأدبي المساعد بجامعة أم القرى وجامعة طنطا

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٢١٢
م . خ

خضر، محمد مشرف .

سرديات الخطاب القرآني ج٢ خطاب القرآن في سورة الرحمن / محمد مشرف خضر .- ط١.- دسوق : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ،

١٥٨ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .

تدمك : 4 - 398 - 308 - 977 - 978

١. ديانات . أ - العنوان .

رقم الإيداع : ٢٤٨٤ - ٢٠١٣.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق – شارع الشركات– ميدان المحطة

هاتــف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ – فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

*E-mail:* elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com



2013

# خطاب القرآن
# في سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

نحمدك اللهم حمدًا يليق بجلال وجهك وبعظيم سلطانك، ونصلي ونسلم على حبيبك ونبيك الذي أرسلته رحمة للعالمين، وأنزلت عليه كتابك تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمؤمنين.

وبعد، فهذا بحث في خطاب القرآن.. يطمح إلى تقديم وصف للسرد القرآني، معتمدا على سورة الرحمن بصفة خاصة.. نرجو له أن يكون خالصا لوجه الله الكريم؛ لم نأل فيه جهدا، ولم ندخر وسعا- وإن قل الجهد وقصر الوسع.

## خطاب القرآن

ولعلنا نحتاج في البداية إلى تحديد معنى الخطاب في اللغة، ومعناه في الاصطلاح.

فالخطاب في اللغة هو: الكلام.

وكلمة خطاب في العربية تحمل دلالة الحوار، والتبادل الكلامي، والتواصل اللغوي. كما نجد في قوله تعالى في سورة ص: فَقَالَ

أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)؛ وكذلك تحمل دلالة البيان الشافي، أو الفصل في القضاء، كما في سورة ص، أيضا: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)..

ولعل دلالة الكلمة اصطلاحا لا تبتعد كثيرا عن هذا المعنى، حيث تدور حول إحكام البناء في الرسالة السردية... مع الوضع في الاعتبار أن التصورات الدائرة حول مفهوم الخطاب، تتنوع بحسب المجالات التي يستعمل فيها، تبعا لاختلاف المنطلقات النظرية لهذه التصورات، وخلفياتها المعرفية.

ولكن إضافة الكلمة هاهنا إلى القرآن ( خطاب القرآن ) تحسم جدلا كثيرا، وتقف بنا عند حدود قريبة، حين تدل على شبكة العلاقات اللغوية والسياقية التي تحكم آليات التواصل في النص القرآني.. وتقترب الحدود أكثر حين لا نستطيع أن نعري الكلمة عن دلالتها الحوارية؛ فالخطاب القرآني رسالة لا يتصور أنها تتم إلا بمخاطَب، مكرَّم، عزيز على الرحمن، كما يدل على ذلك عمومُ الخطاب القرآني، بل كما يدل، من قبل كل هذا، مجرد الاهتمام بإرسال الرسالة إليه، وإنزالها عليه.

والبحث يحاول الوصول إلى وصف للخطاب القرآني في سورة الرحمن، بصفة خاصة، انطلاقا من اقتناع تام بأن الأداء القرآني ( إضافة إلى كونه أداء معجزا، يتميز بسمات كلية لا خلاف حولها ) يتميز في سورة من القرآن عن غيرها، وربما نشعر بهذا من القراءة الأولى، فحين نقرأ سورة الرحمن مثلا، ينتابنا شعور مغاير لما نشعر به عند قراءة سورة مريم، أو سورة طه، أو سورة القمر، أو غيرها من سور القرآن الكريم، في كل مرة نجد طريقة في الأداء متميزة، وخطابا معجزا جديدا. والأمر يستحق عناءً أكثر من الاكتفاء بمجرد الإحساس بذلك التغاير؛ يستحق التثبت من أن هذا الشعور له أساس يستند إليه من لغة النص، وتراكيبه، وبناه، وكذلك من دلالته ومعناه.

ونبدأ في البحث عن هذا الأساس بسورة الرحمن، وهو اختيار له أسبابه؛ فهي عروس القرآن[1]، بما يحمل هذا الوصف من وعد بحسن باهر وجمال آسر، يتحقق كلما قرأها المرء فيزداد بها تعلقا، ولها حبا!! لقراءتها فرحة كبرى تغمر القلب؛ فهي رحلة رائعة تراوح بين نعيم الدنيا، ونعيم الآخرة.. وعرض ماتع لآلاء الخالق، ونعمه التي لا تحصى على خلقه في الدنيا وفي الآخرة. هي سورة تحمل الرحمة والأمن والهداية إلى النفوس الحائرة القلقة، في كل آية من آياتها، بل في كل

كلمة من كلماتها، بل في كل حرف من حروفها، وفي كل صوت من أصواتها، حين تحرك بواعث الشكر للمنعم على نعمه، وتهيج شجون الندم على التقصير في عبادته.... ثم تستثير الهمم للعمل الحثيث من أجل الوصول إلى أعلى الدرجات.. وليس هذا فحسب، بل ثم أسباب لها وجاهتها، نتعرف عليها في أماكنها، إن شاء الله.

## منهج البحث السردي

وسوف نعتمد في وصفنا للخطاب في سورة الرحمن على منهج البحث السردي، وبخاصة في مراحله الأخيرة عند تودوروف وجنت، هذا المنهج الذي يبدأ بتقسيم العمل السردي، خطابا أو نص خطاب، إلى قسمين رئيسين هما: المعنى، والمبنى، ويبحث كلا منهما مستقلا؛ رغبة في تيسير القراءة، وتدقيق الوصف.

ونظرا لخصوصية النص القرآني سيكون بحثنا في القسم الأول، الخاص بالمعنى، بحثا في تأويل النص، بترجيح أحد محتملات اللفظ دون قطع أو شهادة على الله بمراد معين.

وفي القسم الآخر نبحث موضوع الشكل الخاص بعروس القرآن، بما يكمل هذا العمل، ندرس خصائص البناء السردي، فنقسمه إلى عناصره الأولية، أو بالتحديد إلى مقولات ثلاث يتكون منها الخطاب، هي: الزمن السردي، والصيغة السردية، والرؤية السردية. واعتمادنا على هذه المقولات الثلاث سوف يكون خاضعا بالضرورة لطبيعة النص الذي ندرسه، من حيث قدسيته، من ناحية، ومن حيث عربيته الخالصة، من ناحية أخرى.

ولعل في هذا المنهج من الصفات ما يجعله يناسب النظر في القرآن أكثر من غيره من النصوص، حين يضطرنا إلى معاودة البحث عن إجابات لأسئلة سبقت الإجابة عنها، من جانب مغاير فهناك- مع غير النص القرآني- يمكن أن نسير في الفهم والتلقي في خط مستقيم، دون عودة إلى ما مضى، لكننا هنا نجد أنفسنا مضطرين للعودة مرة بعد مرة، نجدد الرؤية، مع تغير آفاق التلقي... وربما يكون السبب وراء كل ذلك كلمة واحدة يتغير مفهومها، أو تتحول دلالتها مع التقدم في قراءة النص، مما يتحتم معه أن نغير القراءة بجملتها توافقا مع ما جد من تأويل أدت إليه بعض قرائن لاحقة في النص.

فهذه القراءة السردية، المعاودة، ذات التحليل الجزئي التي نعود إلى النص فيها مرات عديدة، في كل مرة نبحث عن شيء جديد، من تأويل، وصيغة، وزمن، ورؤية... هي قراءة تناسب تماما تحليل النص القرآني على هذا الوجه الذي بيناه.

وإن ثم جمالا بنيويا تتمتع به نصوص القرآن الكريم، ويغري على تتبعه، ورصده، وتقديمه... وهو جمال طبيعي في بيئة كانت تعرف له حقه، بيئة بلغت فيها المعرفة اللغوية، والخبرة الأدائية أقصى حد يمكن أن تصل إليه.. في هذه البيئة كان يقول أعلمهم بالشعر- برجزه، وبقصيده، وحتى بأشعار الجن..- هو الوليد بن المغيرة-: "والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته".

نسأل الله الرحيم الرحمن أن ييسر لنا فهم كتابه، وأن يوفقنا إلى كلمة فيه، تكون لنا لا علينا.. وأن يغفر لنا ما زللنا فيه وكان قصدُنا الإحسان.. إنه ولي كل نعمة ورب كل عفو وغفران.

أم القرى، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م　　　　د. محمد خضر

## الهوامش:

١- أخرج البيهقي في الشعب عن علي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لكل شيء عروس وعروس القرآن الرحمن. ويرى الطاهر بن عاشور أن هذا لا يعدو أن يكون ثناء على هذه السورة وهو ليس من التسمية في شيء.



# تأويل النص

## اختيار التأويل

اخترنا في الحديث عن المعاني المتاحة حول نص سورة الرحمن مصطلح التأويل دون التفسير، لأسباب تتعلق بفروق دقيقة بينهما، في المفهوم والخصائص.

فالتفسير في اللغة هو: الإيضاح والتبيين، والتفصيل، والكشف.. هكذا في لسان العرب: " الفسْر: البيان فسَر الشيء يَفسِرُه- بالكسر ويَفسُرُه- بالضم فسْراً. وفسَّره: أبانه. والتفسير مثله... والفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل..."[1].

وأما في الاصطلاح، فقد ورد عن العلماء فيه أقوال كثيرة، وعبارات شتى، يدور أكثرها حول أنه علم يبحث عن بيان المعنى الذي أراده الله تعالى بكلامه.

والتأويل في اللغة: من الأوْل وهو الرجوع، ففي القاموس: " آل إليه أولاً ومآلا: رجع، وعنه: ارتد... وأوَّل الكلام تأويلاً وتأوَّله: دبَّره

وقدَّره وفسَّره، والتأويل: عبارة الرؤيا ". وفي لسان العرب: " الأوْلُ: الرُّجوع، آلَ الشيءُ يؤولُ أوْلاً ومآلاً: رَجَع، وأوَّلَ الشيءَ: رَجَعَه، وأُلتُ عن الشيء: ارتددْتُ... وأوَّلَ الكلامَ وتأوَّله: دبَّره وقدَّره، وأوَّله وتأوَّله: فسَّره "[٢].

وقيل: التأويل من الإيالة وهى السياسة، يقول الزمخشري في أساس البلاغة: " آل الرعية يؤولها إيالة حسنة، وهو حسن الإيالة، وائتالها، وهو مؤتال لقومه مِقتال عليهم، أي سائس محتكم "[٣].

وأما التأويل في الاصطلاح، فبعضهم يجعله مرادفا للتفسير، كما نجد عند الطبري في تفسيره.

وعند علماء أصول الفقه، هو صرف اللفظ عن ظاهره ( المعنى الراجح ) إلى وجه مرجوح يحتمله، لوجود دليل يؤيده[٤].

ويقول الراغب الأصفهاني: " التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يُستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا. والتأويل يُستعمل أكثره في الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها. والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ. والتأويل أكثره يستعمل في الجمل، فالتفسير إما أن يُستعمل في غريب الألفاظ كـ "البَحيرة والسائبة

والوصيلة" أو في تبيين المراد وشرحه كقوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة البقرة: ( وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ).. وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى في الآية (٣٧) من سورة التوبة: ( إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ).. وقوله تعالى في الآية (١٨٩) من سورة البقرة: ( وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ).

وأما التأويل: فإنه يُستعمل مرة عاماً، ومرة خاصاً، نحو "الكفر" المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة. و"الإيمان" المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ "وجد" المستعمل في الجد والوجد والوجود "[٥].

ويقول أبو منصور الماتريدي ( ٣٣٠ هـ ): " التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي، وهو المنهي عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله "[٦].

فإذا كان الأمر على هذا النحو، والتفسير معناه الكشف عن مراد الله تعالى، والشهادة عليه بمقصود معين، بينما التأويل فيه ترجيح أحد

محتملات اللفظ دون قطع أو شهادة، فإننا نختار هنا التأويل في التعامل مع كلام الله عز وجل.

ومع أن هذا الاختيار يوحي بأنه يفتح لنا باب القول واسعا، فإننا مع ذلك لن نقول هاهنا برأي، إنما سنعتمد آراء العلماء من المفسرين، أصحاب الرأي، أساسا نرتكز عليه، وإذا كانت لنا ملاحظة أوردناها على استحياء بعد أن نراجع ما قالوه، ونوردها بوصفها خاطرة قاصرة، لا شهادة على الله بترجيح مراد ليس لنا به علم.

## نظام السرد

يقول تودوروف Todorov في بحثه الرائد في مجال السرديات البنيوية Les catégories du récit Littéraire : " إن تتالي الأفعال لا يجري اعتباطيا Arbitraire في سرد ما، إنما يخضع لمنطق معين... وعلينا أن نعرف ذلك المنطق "[7]. وإذا كان مثل هذا الكلام يقال في حق رواية من وضع بشري، فكيف يكون الأمر إذا كان النص مقدسا، إلهيا، هو القرآن الكريم، كلام الله، بل هو عروس هذا القرآن، سورة الرحمن، بكل ما فيها من جمال، وبكل ما لها من جلال ؟!

وفي سبيل معرفة منطق البناء السردي في سورة الرحمن سيكون علينا أن نقوم بتقسيمها إلى مقاطع، كل مقطع فيها- بتحديد جريماس Greimas- ينبغي أن يكون قادرا على أن يعطي وحده معنى مستقلا، وأن يكون له غايته الخاصة به، لكنه في الوقت نفسه، قادر على الاندماج داخل الحكاية الكبرى، ليؤدي وظيفة خاصة فيها[8].

والحق أن عروس القرآن تقدم لنا مفاصلها الرئيسية في صفاء شديد: فثم تقسيم من خلال الزمنية السردية التي تحكم النص، والتقسيم نفسه يؤيده التوزيع المكاني.. وتحدده محددات كثيرة تتضافر في تأكيده. فنحن نتنقل في سورة الرحمن بين مراحل ثلاث هي: (الخلق، والفناء، والحساب) وفيما يلي نتتبع هذه المراحل.

## المرحلة الأولى

وتبدأ مع النشأة الأولى، التي كان مبتدؤها الرحمن، في دلالة على سعة الرحمة وعموم الإحسان وواسع الفضل، ومن ثم يتوالى التذكير بنعمه الكبرى على عباده، سواء منها النعم الدينية أم الدنيوية، وسواء منها النعم الكونية، أم الذاتية الكامنة في الأنفس.. من مثل: خلق الإنسان وتعليمه البيان، وتسخير الكون كله، من شمس وقمر، ونجم

وشجر، وغيرها من النعم لذلك الإنسان.. المخلوق أصلا للدين، ليعلم وحي الله ويفقه كتبه، وكل ذلك من رحمته به:

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ(١٥) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥).

الرَّحْمَنُ (١) مبتدأ[٩] كل خير ونعمة، رحمن الدنيا والآخرة، اسم أنكره المشركون: ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) [الفرقان] فجاء ليخبرهم من

الرَّحْمَنُ (١) بخمسة أخبار، تريح استشرافهم إلى معرفته، أو تزيدهم ذلة وصغارا، وقهرا.. يعجل بأربعة منها عقب المبتدأ مباشرة، ويؤخر واحدا إلى الآية التاسعة عشرة. فـ: الرَّحْمَنُ (١)؛ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) كلها من آيات رحمته، وكلها نعم كبرى تتابع. فمن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل عليهم القرآن وييسر حفظه وفهمه على من رحمه منهم، ففيه منهاج المؤمن لحياة طيبة في الدنيا، والفوز بالجنة في الآخرة.

والْإِنْسَان (٣): آدم عليه السلام؛ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله: خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) قال: آدم[10]. ولعل في الآيتين الثالثة والرابعة تفصيل ما في الآية الثانية، أي أن خلق الإنسان وتعليمه البيان، هو معنى تعليم القرآن في الآية الثانية، كما يقول الرازي، وبدأ بخلق الإنسان لأنه نعمة تتم بها جميع النعم، ولولا وجوده ما انتفع بشيء منها، ثم تلا ذلك بنعمة الإدراك ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) وهو كالوجود إذ لولاه لما حصل النفع والانتفاع[11]. ويرى الطبري أن الصواب من القول في قوله تعالى: عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) أن يقال: معنى ذلك أن الله علم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام، والمعايش والمنطق، وغير ذلك مما به الحاجة إليه، لأن الله جل

ثناؤه لم يخصص بخبره ذلك، أنه علمه من البيان بعضا دون بعض، بل عم فقال: عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)، فهو كما عم جل ثناؤه[١٢].

وينبه الطاهر بن عاشور أن في هذا القول لكفار قريش، خاصة، أهل البيان والفصاحة واللسن.. ما فيه من التبكيت حيث لم يشكروا المنعم على نعمة البيان التي هو صاحبها، وصرفوا جزءا كبيرا من بيانهم فيما يلهيهم عن إفراد الله بالعبادة، وفيما ينازعون الله به من يدعوهم إلى الهدى[١٣].

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) بحسبان منه، أو بحسبانه، جملة تقع خبرا رابعا لـ: الرَّحْمَنُ (١) وحسبان: جمع حساب[١٤]. والتأويل: يجريان متعاقبين بحساب معلوم مقنن دقيق لا يختلف ولا يضطرب، انقيادا لله، آية كبرى، ونعمة منه لخلقه. وهما أظهر أنواع النعم السماوية التي ينتفع بها الإنسان.

ومن بعد يأتي معطوفا على الأخبار الأربعة، أربعة أخرى زيادة في قهر الكفار وإذلالهم، وزيادة في تعظيم المؤمنين وإكرامهم، فهم عباد الرحمن، هم عباد الله، وله الأسماء الحسنى.

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) النجم ما انبسط على وجه الأرض من النبات، أو هو النجم الذي في السماء. والنجم والشجر ينقادان لله فيما خلقهما له، آية كبرى، ونعمة منه لخلقه، آيتان أخريان في الأرض في مقابل الآيتين السابقتين في السماء.

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) رفعها خلقا عجيبا بغير عمد، وأقر العدل شريعة كونية، أو فرض التوازن الكوني- فيما يرى تمام حسان[١٥]، آية كبرى، ونعمة منه لخلقه.

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) قال العكبري: لئلا تطغوا، وقيل "لا" للنهي، أي: لا تنقصوا الموزون[١٦]، أو لا تنقضوا هذا التوازن الكوني.

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) اعدلوا في كل أموركم، فلا تظلموا ولا تنقصوا المكيال.

يقول سعيد حوى في هذا الصدد: " وفي ذكر وضع الميزان بعد ذكر رفع السماء إشارة إلى أن من جملة الموازين اكتشاف أبعاد السماء، والموازين التي يزن بها الإنسان أبعاد الزمان والمكان، وفي ذكر الميزان في هذا السياق إشارة إلى أن الميزان من نعم الله الجليلة التي تعدل المنن الأخرى على البشرية ".[١٧]

ولعل لفظة الميزان هاهنا تسمح بتأويلات كثيرة، فالميزان: المنهج القويم العدل المعتدل، الذي يستقيم عليه من أراد النجاة، والفوز برضوان الله وجناته.... والميزان: الحال التي تتزن فيها عبودية العبد مع ربوبية الرب؛ تتزن فيها تعاليم الخالق وأفعال المخلوق؛ يتزن فيها الإيمان القلبي والتصديق الداخلي مع الأفعال الخارجية... وربما لذلك جاء الميزان في القرآن مقرونا بالكتاب: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) [الشورى]- لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.. (٢٥) [الحديد].. فتحقيق الميزان إنما يتأتى باتباع تعاليم الكتاب.... إنه، بحق، لأمر شديد على الإنسان أن يجاهد نفسه بترك أهوائها، وأن يتمسك بما في الدين من حق وعدل!

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) وضعها، ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم في سائر أقطارها وأرجائها.

فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) تبيان لكيفية الانتفاع بما فيها من شجر تفكهًا، ومن نخل غذاءً، بين رطب وبسر وتمر، وهو فاكهة وقوت مستمر لا وقت له. والأكمام أوعية الطلع، فهو ليس نخلا

عقيما، بل مكتمل الفائدة، سواء في شكله التام ونظامه الدقيق، أم في ما فيه من منافع.

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) وإذا كان النخل في تمام بنيته، آية حُسن في عيون الناظرين.. فثم آية أكبر منها، هي الحب الذي هو قوام حياة الإنسان والحيوان، حين يبدو مكتملا حسنا في سنبله تعصف به الريح، فيشع فرحة وطمأنينة بضمان رزق الغد. بل ثم ما هو أكثر جمالا وأبهى، وأشد بعثا للفرحة في النفوس، وبه تكتمل السعادة.. إنه الريحان الذي يملأ الدنيا بعطره، ويملأ الأرض بجمال منظره، وردا وزهرا... فبأي آياته وبأي نعمه، وهو الرازق الرحمن، وقد رأيتم آيات رزقه، وآلاء رحمته، تكذبان ؟! استفهام بلاغي لا يراد في ذاته، بل يراد من ورائه معان أخرى، من مثل التقرير بما مضى من نعم أنعمها الرحمن على الإنسان، أو التبكيت على التكذيب بها، أو التذكير بوجوب شكر المنعم على نعمه...

وقوله تعالى: ﴿ ءَالَاءِ ﴾ بين أن يكون المراد بها النعم التي أسبغها الله تعالى على خلقه، أو أن تكون هي آيات النعم، أو النعم الكبرى؛ يقول تعالى في سورة الأعراف: وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

(٦٩)- وفي السورة نفسها يقول تعالى: وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)- وفي سورة النجم يأتي قوله تعالى: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) فهي في القرآن تأتي أربعا وثلاثين مرة، هذه الثلاث، وبقيتها في سورة الرحمن واحد وثلاثون، تقع بين المعنيين...

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) خلقه من طين يابس، وأنشأه على ما هو عليه من قوى وملكات ظاهرة وباطنة.

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) من لهب صاف لا دخان فيه، أو مختلط بسواد النار.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) بأي آياته في الخلق، وبأي نعمه، وهذه قدرته، فهو الخالق القادر والمصور المبدع، تكذبان.

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) بأي آياته، وبأي نعمه، وهو المتصرف في كونه المهيمن عليه، وهو مقلب الليل والنهار، ومقلب الفصول وما فيها مما يناسبها، تكذبان.

يرى الشريف المرتضى أن هذا التكرار قد حسن " للتقرير بالنعم المختلفة المعدّدة، فكلّما ذكر نعمة أنعم بها قرّر عليها، ووبّخ على التكذيب بها... فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرّره به.."[18].

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) الخبر الخامس عن: الرَّحْمَن (١) أرسلهما، ومنعهما بقدرته عما في طبعهما، منعهما أن يلتقيا[19].

بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) بينهما حاجز يمنع أحدهما أن يبغي على الآخر، بالمازجة والاختلاط وإبطال الخاصية.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) بأي آياته، وبأي نعمه، وهذه قدرته في تنظيم كونه، تكذبان.

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) بأي آياته، وهو خالق الجمال في كونه الذي تتكامل فيه نعمه، تكذبان. وهنا نذكر بما مر من حديث عن الآلاء التي في الأرض من فاكهة ونخل وحب وريحان، فهناك تكاملت النعم بين مقيم للحياة ضروري لاستمرارها ومتمم للسعادة فيها، وهاهنا في البحر كذلك تتكامل النعم بين ضروري للحياة مما تخرجه البحار بما هي عليه، وما تحمله على

ظهرها، وبين متمم للسعادة والفرحة تخرجه، كذلك بما هي عليه، من لؤلؤ ومرجان وحلي مختلفات...

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) السفن التي تجري في البحر كالجبال الضخام. وهذا التشبيه يظهر على كماله وتمامه من خلال رؤية السفن الضخمة في العصور المتأخرة، وكذلك من خلال ما عرف حديثا من أن للجبال جذرا وتديا يعدل ضعفي ما يظهر منها فوق سطح الأرض. ومن المعروف أن غاطس السفن يعدل كذلك ضعفي ما يظهر منها على سطح البحر[٢٠].

فبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) بأي آياته، وبأي نعمه، وهو الذي سخر لكم البحر، وكل ما فيه، تكذبان.

# المرحلة الثانية

ثم يلي ذلك حديث عن خاتمة تلك المرحلة، والفناء الحتمي لكل الخلائق، هذا الفناء الذي هو نعمة تنضاف إلى غيرها من النعم، لأن به يكون التحول من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ونعيمها...:

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) وكل تلك النعم التي جعلها الله لكم في الدنيا في عظمها وتكاملها، مما مر عرض نماذجه الكبرى، صائر إلى فناء، ولا يبقى شيء سوى وجه الله الكريم، بعظمته وسلطانه وكبريائه وفضله.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) بأي آياته، وبأي نعمه، وهو الحق، الحي، الباقي، تكذبان. وبأي آياته، وبأي نعمه، وكل ما على الأرض من زخرف وزينة ليس إلا متاع الحياة الدنيا ولا يبقى منه في النهاية من شيء، لا يبقى إلا الله يحاسبكم على كل ما مضى..– فبأي شيء من ذلك تكذبان.

وإذا كانت الحياة نعمة، فالمات كذلك؛ فلو أن الأحياء خالدة لا تموت، فكيف كان يكون الحال مع تعاظم أعدادها. ولولا الموت لما كانت نعم تترتب عليه، من مثل نعيم الآخرة.

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) لا يستغني عنه أهل السموات ولا أهل الأرض، يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن، يجيب داعيا، أو يعطي سائلا، أو يفك عانيا، أو يشفي سقيما، أو يكشف كربا، أو يجيب مضطرا، أو يغفر ذنبا؛ يحيي حيا ويميت ميتا، ويربي صغيرا... أو يرفع قوما ويضع آخرين.. وكلها، فيما قال الحسين بن الفضل النيسابوري " شئون يبديها لا شئون يبتديها "، أي أن المراد سوق المقادير إلى المواقيت، ومعناه أن القلم جف بما يكون في كل يوم ووقت، فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل فيه فيوجد.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) بأي نعمه، وهو الواحد الصمد، الذي يقصده الجميع لقضاء حوائجهم، ويقضي لكلٍ حاجته، تكذبان.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) الثقلان: الجن والإنس، قال القرطبي: سميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما

بسبب التكليف. وقيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا، قال الله تعالى: وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) [الزلزلة][٢١] وثم إخبار بالتفرغ لهما، للحساب، أو لغيره. يقول أبو عبيدة: سَنَفْرُغُ لَكُمْ سنحاسبكم[٢٢]، ويقول الشنقيطي: سَنَفْرُغُ لَكُمْ: أي سنتوجه إليكم ونقصدكم لنجازيكم[٢٣]. ويقول الطبري: سَنَفْرُغُ لَكُمْ: سنحاسبكم، ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجن، فنعاقب أهل المعاصي، ونثيب أهل الطاعة[٢٤].

ويقول الشوكاني عند تفسير هذه الآية: هذا وعيد شديد من الله سبحانه للجن والإنس. قال الزجاج، والكسائي، وابن الأعرابي، وأبو علي الفارسي: إن الفراغ ها هنا ليس هو الفراغ من شغل، ولكن تأويله القصد، أي سنقصد لحسابكم. قال الواحدي، حاكيا عن المفسرين: إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده... وفرغ يجيء بمعنى قصد[٢٥].

ويقول البيضاوي فيها: أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة، فإنه تعالى لا يفعل فيه غيره. وقيل تهديد مستعار من قولك لمن تهدده: سأفرغ لك. فإن المتجرد للشيء كان أقوى وأجد فيه[٢٦].

ويرى أبو هلال العسكري أن قول الله تعالى في سورة الرحمن: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) معناه سنقصد، لأنّ القصد لا يكون إلا مع الفراغ، ثم في الفراغ هاهنا معنى ليس في القصد وهو التوعد والتهديد. ألا ترى قولك: سأفرغ لك، يتضمن من الإيعاد ما لا يتضّمنه قولك: سأقصد لك.[٢٧]

ويقول البغوي: وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة، كقول القائل لأتفرغن لك وما به شغل وهذا قول ابن عباس والضحاك وإنما حسن هذا الفراغ لسبق ذكر الشأن. وقال آخرون معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم كقول القائل الذي لا شغل له قد تفرغت لك. وقال بعضهم إن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور ثم قال سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم فنحاسبكم ونجازيكم وننجز لكم ما وعدناكم فنتم ذلك ونفرغ منه وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل[٢٨].

وينقل الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه " التفسير والمفسرون " عن بعضهم في تأويل هذه الآية: " إن الله تعالى قدَّر دور الستر على مدة معلومة وجعل حساب الخلائق وثوابهم وعقابهم عند انقضاء تلك المدة وفراغها، فأعلمهم تعالى في هذه الآية أن ما وعدهم به من الثواب وأوعدهم به من العقاب يكون عند فراغها، فذلك معنى قوله: سَنَفْرُغُ

لَكُمْ؛ فنسب فراغ المدة إليه إذ هي عن أمره تعالى، وإلا فلا يُنسب إليه اشتغال ولا فراغ على الحقيقة "[٢٩].

وقد قصدنا الإطالة في الحديث حول تأويل هذه الآية، وأكثرنا من النقول، لأنا نحسب أن فيها شيئا يحتاج إلى بيان، ربما لا نستطيع إيضاحه والكشف عنه بجلاء لكنا نشعر به؛ فهي الآية الوحيدة، في سورة الرحمن، التي يأتي فيها هذا الضمير، ضمير الجمع الدال على العظمة، والعلو: سَنَفْرُغُ .. وهو يأتي بعد بيان حاجة أهل السماوات والأرض إليه، ويأتي قبل إعلان أن التحرك في الكون إنما يكون بسلطان يمنحه صاحب القدرة ومالك الملك والملكوت، والمتصرف فيه بما يشاء.

ولعل المفسرين قدموا تأويلهم لها، بما يتوافق مع معارف زمانهم؛ ففيها وعيد وتهديد، لأن الكلام عن يوم القيامة، وعما فيه من التفرغ للحساب، من حيث إن التعجيز بالنفوذ، فيما يلي، هو تعجيز بالهروب من الحساب. يقول ابن كثير: " أينما ذهبتم أحيط بكم وهذا في مقام الحشر؛ الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب... إلا بأمر الله "[٣٠] ولكنا الآن، وبعد ما يجري من غزو للفضاء، يمكن أن نرى الأمر يحتمل تأويلا آخر، هو أن هذا الغزو للفضاء، فيما وصلوا إليه وفيما لم يصلوا إليه بعد، إنما يكون بأمر من الله

وسلطان، يمنحه لهم ليريهم في كل حين جديدا من آياته... وعلى هذا فقد تحتمل الآية السابقة: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَان (٣١) أن الفراغ قد يكون لشأن آخر، غير التهديد والوعيد؛ قد يكون فراغ رعاية، وهداية، وتوجيه، بما يدل على كمال الاهتمام. وللقرطبي في تأويلها قول جدير بالنظر، يقول: " وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة، صاح الشيطان: يا أهل الجُبَاجب! هذا مذمَّم يبايع بني قَيْلة على حربكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هذا إزْبُ العقبة أما والله يا عدو لأتفرغن لك " أي أقصد إلى إبطال أمرك.. وقيل: إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور، ثم قال: " سَنَفْرُغُ لَكُمْ " مما وعدناكم ونوصل كلا إلى ما وعدناه، أي أقسم ذلك وأتفرغ منه[٣١].

ويقول الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: " والفراغ للشيء: الخلو عما يشغل عنه، وهو تمثيل للاعتناء بالشيء... وهذا التمثيل صالح للاستعمال في الاعتناء كما في قول أبي بكر الصديق لابنه عبد الرحمن افرغ إلى أضيافك أي تخل عن كل شغل لتشغل بأضيافك وتتوفر على قراهم "[٣٢]. ولعل هذا يتسق مع سياق النص الذي هو سياق رحمة، وإن كان التأويل الأول يتسق مع السياق كذلك، حين يرتدع الظالم عن ظلمه خوفا من هذا التهديد الرهيب، والله تعالى أعلم.

وكما نرى، فإن لكلا التأويلين وجاهته، والنص لا يرفض أيا منهما. فإذا قلنا إن التفرغ للحساب، فلأن هذه الآية تأتي بعد ما سبق من إخبار بأن الأرض وكل ما عليها ليس سوى زينة مؤقتة، سرعان ما تذهب إلى فناء، وفي ذلك إشارة إلى أهمية العمل في الدنيا بما ينفع حين لا يبقى إلا الله يحاسب خلقه على ما قدموه في حياتهم الدنيا. وإذا قلنا إن التفرغ للعناية والرعاية والتوجيه، فلأن الآية كما قلنا تأتي بعد بيان حاجة أهل السماء والأرض إليه، ومن ثم فهو سبحانه وتعالى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) مجيبا لداع أو معطيا لسائل أو فاكا لعان أو شافيا لسقيم، أو كاشفا لكرب أو مجيبا لمضطر أو غافرا لذنب، محييا حيا ومميتا ميتا ومربيا صغيرا... أو رافعا قوما وواضعا آخرين.. ومن ثم تأتي الآية إظهارا لكمال الرعاية والعناية، وكأنه سبحانه وتعالى قد فرغ نفسه لكل هذا. والله أعلم بمراده.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) بأي آلائه، وهو ربكم وراعيكم في الدنيا، وهو بما يريد بكم من خير سيحاسبكم في الآخرة، تكذبان. ثم كيف يكون منكم التكذيب والكفران، وأنتم موقوفون بين يديه وهو مجازي المكذبين منكم على تكذيبهم.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) لا تقدرون على النفوذ إلا بسلطان منا نعطيكم إياه، ولا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره.. ويقول الطبري فيها: اختلف أهل التأويل فقال بعضهم: معنى ذلك: إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض، فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم، فجوزوا ذلك، فإنكم لا تجوزونه إلا بسلطان من ربكم، قالوا: وإنما هذا قول يقال لهم يوم القيامة. قالوا: ومعنى الكلام: سنفرغ لكم أيها الثقلان، فيقال لهم: ( يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ).

وقال آخرون: بل معنى ذلك أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض، فانفذوا هاربين من الموت، فإن الموت مدرككم، ولا ينفعكم هربكم منه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموه، لن تعلموه إلا بسلطان، يعني البينة من الله جل ثناؤه.

وقال آخرون: معنى قوله ( لا تنفذون ) لا تخرجون من سلطاني.

وأما قوله: ( إلا بسلطان ) فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: معناه: إلا ببينة وقد ذكرنا ذلك قبل. وقال آخرون: معناه: إلا بحجة.

وقال آخرون : بل معنى ذلك إلا بملك وليس لكم ملك....[٣٣]

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) بأي نعمه، مع ذلك، تكذبان.

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) شُوَاظٌ النار التي تؤجج لا دخان فيها[٣٤]. نُحَاسٌ: الدخان[٣٥]، أو لهب أخضر منقطع، أو سيل من النار. والعرب تسمي الدخان نُحاسا بضم النون وكسرها، أو هو اللهب الذي لا دخان معه، أو هو النحاس الأصفر المعروف. فَلَا تَنْتَصِرَانِ: فلا تستطيعان النفوذ دون سلطان منا نمنحكم إياه.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) بأي نعمه، وهو الذي أعطاكم سلطان النفوذ، تكذبان! وإنكم لفي حاجة دائمة إليه ربا وإلها قادرا، يستحق العبادة وحده، ويستحق الشكر على نعمه التي لا تحصى.

# المرحلة الثالثة

ثم تأتي المرحلة الثالثة، مرحلة الحساب على ما كان في الحياة الدنيا، ومن ثم تكون نتائج الأعمال، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر:

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) إذا انصدعت السماء بعضها عن بعض، يوم القيامة، وصارت كلون الورد الأحمر. والدهان: الأديم الأحمر، أي تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم، أو تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصيبها حر جهنم.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) بأي نعمه، وكل هذا الهول بانتظاركم، تكذبان.

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) تتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. أو لأنهم يعرفون بسيماهم، وكأن هذا، على قول صاحب الأساس، بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك وقت لا يسألون فيه عن ذنوبهم بل يقادون إليها، ويلقون فيها.[٣٦]

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) بأي نعمه، وهو الذي يؤاخذ بالذنب ويعفو عن الذنب، تكذبان.

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) يعرفون بعلامات تظهر عليهم، أو باسوداد وجوههم، ويصيرون إلى منتهى الذلة والصغار، تارة يؤخذ بنواصيهم ويجرون على وجوههم، وأخرى يؤخذ بأقدامهم ويسحبون على رؤوسهم، أو يجمع الزبانية نواصيهم وأقدامهم ويلقونهم في النار.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) بأي نعمه، وكل هذا الهول بانتظاركم، تكذبان.

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) ها هي جهنم، وهذا عذابها للمكذبين، تارة يعذبون في

جحيمها وتارة يسقون من حميم آن، وهو شراب كالنحاس المذاب الذي بلغ الغاية في الحرارة.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) بأي نعمه، وكل هذا الهول حق وبانتظاركم، تكذبان.

يقول البغوي: وكل ما ذكر الله تعالى من قوله: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) إلى ههنا مواعظ وزواجر وتخويف وكل ذلك نعمة من الله تعالى لأنها تزجر عن المعاصي ولذلك ختم كل آية بقوله ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) ثم ذكر ما أعده لمن اتقاه وخافه.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) لمن عرف لربه مقام جلاله وعظمته، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فنهى النفس عن الهوى، ولم يطغ ولا آثر الحياة الدنيا، فأدى فرائض الله واجتنب محارمه... له جنتان فيهما مثل ما كان من النعم المتكاملة التي كانت له في الدنيا، وزيادة؛ بل لعل نعم الدنيا كان يختلط فيها النعيم بالكد والشقاء، وله النعيم في الجنة كاملا وخالصا للذة والمتعة.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) بأي نعمه، وكل هذا النعيم بانتظاركم، تكذبان.

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) أغصان نضرة. أو فيها ألوان كثيرة من كل ما تهفو النفوس إليه.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) بأي نعمه، مرة ثانية، وكل هذا النعيم بانتظاركم، تكذبان.

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان، وفيهما متعة للناظرين.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) بأي نعمه، مرة ثالثة، وكل هذا النعيم بانتظاركم، تكذبان.

فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) من جميع أنواع الثمار صنفان: صنف معروف وصنف غريب.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) بأي نعمه، مرة رابعة، وكل هذا النعيم بانتظاركم، تكذبان.

مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) الإستبرق: هو ما غلظ من الديباج، أو هو الديباج المزين بالذهب، وهذا للبطائن فكيف بالظواهر ؟!

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) بأي نعمه، مرة خامسة، وكل هذا النعيم بانتظاركم، تكذبان.

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) في الفرش غضيضات عن غير أزواجهن. لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) بأي نعمه، مرة سادسة، وكل هذا النعيم بانتظاركم، تكذبان.

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) في صفائهن، وبياضهن.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) بأي نعمه، مرة سابعة، وكل هذا النعيم بانتظاركم، تكذبان.

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) ليس لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة. أو ما جزاء التوحيد إلا الجنة.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) بأي نعمه، والإحسانُ جزاء الإحسان، تكذبان.

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) من دونهما في الدَّرَج، أو في الفضل. أو أن لهم جنتين أخريين.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣)

مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) اسودت خضرتهما من شدة الري من الماء.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥)

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فياضتان. أو ممتلئتان ولا تنقطعان.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧)

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩)

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠)

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١)

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) مستورات فيها.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣)

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤)

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥)

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) على محابس، أو على سرير كهيئة المحابس المتدلي. أو على الوسائد، أو على رياض الجنة. والعبقري وصف لكل فائق في صنفه، أو هي عتاق الزرابي أي جيادها. والعبقري الديباج " وعبقري حسان " بسط أهل الجنة، أو هي المرافق. والعبقري أحمر وأصفر وأخضر. والعبقري: البسط أسفل من ذلك. والعبقري الطنافس. وكل ثوب موشى عند العرب عبقري. وكل شيء نفيس يسمى عند العرب عبقريا.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) فما رأيكم بعد كل هذا، ولأي شيء عن العمل لكل ذلك تنصرفان.

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) تنزه وتقدس، صاحب الآلاء ذو العظمة والإنعام. وجاءت ختاما لنعم الآخرة، وختاما للسورة

تذكر بعظمة الله تعالى المنعم صاحب كل تلك الآلاء الدنيوية والأخروية، الحقيق وحد بالعبادة...

وتعود بنا الآية الأخيرة في السورة، مرة أخرى، إلى أول آية فيها، في تدوير بلاغي رائع ينتج عنه أن: اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، هو: الرَّحْمَنُ (١)، وتتداعى في الذهن بقية الآيات: عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)... ولا تتوقف النعم، وتبقى آلاء الرحمن آية تكريم للإنسان في رحلته الكبرى بين الدنيا والآخرة.

## الهوامش:

١- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، ٥/ ٣٤١٢

٢- المرجع السابق، ١/ ١٧٢

٣- الزمخشري، أساس البلاغة، كتاب الشعب، ١٩٦٠، ١/ ٢٥

٤- انظر ابن جزي الكلبي، تقريب الوصول إلى علم الأصول، القاهرة ١٤١٤هـ، ص ١٦٢ وهامشها؛ وعبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، بيروت ١٩٨٧، ص ٣٤٠ وما بعدها.

٥- انظر: صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٧٨، ٢/ ١٤١. وحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، ١/ ٣٣٥. وانظر مثل هذا التعريف عند الثعالبي في الجواهر الحسان في تفسير القرآن، بتحقيق الدكتور عبد الفتاح أبو سنة، وآخرين، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ، ١/ ٤٤

٦- انظر، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١/ ٤٣٥

Tzvetan Todorov, Les catégories du récit Littéraire, Communications n°8, éd. du Seuil, coll. Points, Paris, 1981, P.

8 - Greimas A. J. Du sens, éd. du Seuil, Paris, 1970, P. 268

٩- أو هو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير الله الرحمن، أو هو الرحمن. قيل نزلت هذه الآية جوابا لأهل مكة حين قالوا ( إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ) النحل ١٠٣، وقيل جوابا لقولهم ( وَمَا الرَّحْمَنُ ) الفرقان ٦٠- انظر العكبري، إملاء ما من به الرحمن، ٢/٢٥١

١٠- يقول الطبري في تفسيره لقوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣): خلق آدم وهو الإنسان في قول بعضهم. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة في قوله: خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) قال: الإنسان: آدم عليه السلام. حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، قال: ثنا سعيد، عن قتادة: خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) قال: الإنسان: آدم عليه السلام. وقال آخرون: بل عنى بذلك الناس جميعا، وإنما وحد في اللفظ لأدائه عن جنسه... والقولان كلاهما غير بعيدين من الصواب لاحتمال ظاهر الكلام إياهما.

١١- الرازي، التفسير الكبير ( مفاتيح الغيب ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ٢٩/ ٧٦

١٢- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتوثيق وتخريج جميل صدقي العطار، دار الفكر بيروت ١٩٩٥

١٣- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧/ ٤٢٤٣

١٤- أبو عبيدة، مجاز القرآن، الخانجي، ٢/ ٢٤٢

١٥- يقول تمام حسان، في تأملاته حول سورة الرحمن عند الكلام حول قوله تعالى: وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ(١٠): " ويستفاد من الشركة بين الميزان والأرض في الاقتران بهذا الفعل (والله أعلم) أن المقصود بالميزان هو التوازن الذي أنشأه سبحانه بين مخلوقاته في الكم والكيف بحيث لا يكون بعض المخلوقات سببا في إفساد الحياة " انظرالبيان في روائع القرآن، ٢٠٠٣، ٢/ ٣٤٣ وما بعدها.

١٦- العكبري، إملاء ما من به الرحمن، ٢/ ٢٥١

١٧- الأساس، ١٠/ ٥٦٤٦- ٥٦٤٧

١٨- الشريف المرتضى، أمالي المرتضي، ١٢٣/١

١٩- جعل قانونا ثابتا يحكم العلاقة بينهما من حيث الكثافة والملوحة، وما فيهما من أحياء مائية كأن بين كل بحر وآخر حاجزا غير ظاهر؛ ومن عجائب قدرة الله تعالى أنه جعل ماء النهر لا يؤثر في ماء البحر فيغير ملوحته كما لا يؤثر ماء البحر في ماء النهر لأن النهر الذي يصب في البحر يكون عادة في مستوى أعلى من مستوى سطح البحر. ويقول الدكتور زغلول النجار في هذا الصدد: وهي إشارة قرآنية دقيقة إلي حقيقة علمية مؤكدة لم يدركها العلماء المتخصصون إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في أثناء رحلة الباخرة البريطانية (**Challenger**) (١٨٧٢- ١٨٧٦) مؤداها أن الماء في البحار المتجاورة، وحتى في البحر الواحد يتمايز إلي العديد من البيئات المتباينة في صفاتها الطبيعية والكيميائية، والتي تلتقي مع بعضها البعض دون امتزاج كامل، فتبقى مفصولة علي الرغم من اختلاطها وتلاقي حدودها، وذلك لما للماء من خصائص ميزه بها الخالق ( سبحانه وتعالى ).

٢٠- سعيد حوى، الأساس في التفسير، ١٠/ ٥٦٦٤

٢١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، بيروت، ٩/ ١٦٩

٢٢- أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، الخانجي، ٢/ ٢٤٤

٢٣- المختار أحمد محمود الشنقيطي، الترجمان والدليل لآيات التنزيل، الرياض، ط١، ١٩٩٣، ٢/ ٥٦٠

٢٤- الطبري، جامع البيان

٢٥- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، البابي الحلبي، ط٢، ١٩٦٤

٢٦- البيضاوي، تفسير البيضاوي ( أنوار التنزيل وأسرار التأويل ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩

٢٧- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٦٩

٢٨- أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، معالم التنزيل

٢٩- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢/

٣٠- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصر، ٤/ ٢٤٧

٣١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ١٦٨

٣٢- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧/ ٤٢٤٣

٣٣- انظر الطبري، جامع البيان

٣٤- أبو عبيدة، مجاز القرآن ٢/ ٢٤٤

٣٥- أبو عبيدة، مجاز القرآن ٢/ ٢٤٤

٣٦- سعيد حوى، الأساس، ١٠/ ٥٦٦٧

# البنية الزمنية

## الخطاب القرآني

إن البحث عن خصائص البنية في خطاب ما، من وجهة نظر سردية، يتطلب منا دراسة مقولات ثلاث: بنيته الزمنية، وصيغته، ورؤيته السردية، أو وجهة النظر التي يحملها[1]. وهذه المقولات الثلاث تمثل البنية المادية للخطاب، وهي القسم الآخر الذي يتعين علينا دراسته الآن بعد أن درسنا المعنى، فيما سبق تقديمه من تأويل النص. يبقى الآن الحديث عن الشكل الذي تلبسه وجاء عليه، عن لغة النص، عن تراكيبه، وبناه.. عن زمن النص، وصيغته، ورؤاه.

وهذا التقسيم الإجرائي الثلاثي سوف يتيح لنا درجة من درجات الدقة، في التعرف على خصائص كل مقولة من المقولات، حين تنفرد بدراسة مستقلة وحدها، بما يرجى معه تقديم وصف دقيق لبنية الخطاب في سورة الرحمن.

# البنية الزمنية

حين تتحول الأحداث التاريخية المعيشة، التي يمكن أن نراها، وأن نحياها، وأن نكون جزءا منها، ومشاركين فيها... حين تتحول عن كونها الواقعي المادي إلى كون جديد قوامه الكلمات، والتراكيب اللغوية... لا يبقى الزمن على حاله الأول، وإنما تجري عليه تحولات تفرضها أمور كثيرة، من قبيل وجهة النظر التي تحكم عملية الانتقاء والتوزيع، أو إعادة التوزيع، التي تخضع لها الأحداث في تحولها من تاريخ معيش إلى كون كلامي.

ودراسة الزمن، فيما يرى أصحاب المنهج السردي، هي دراسة العلاقات القائمة بين زمن المدلول وزمن الدال؛ بين زمن الأحداث التاريخية، وزمن السرد الذي يعيد صياغتها، لا كما وقعت وإنما كما يريد القائل. فإذا كان زمن الأحداث تاريخيا بمعني أنه يخضع للتتابع المنطقي لها وفقا لتسلسلها الزمني، فإن زمن السرد لا يخضع لأي قيد من ذلك؛ مما يؤدي إلى حدوث ما أطلق عليه جنت Genette اسم المفارقات الزمنية (Anachronies) الذي يعني مختلف أشكال التنافر الزمني بين ترتيب الأحداث، وترتيب السرد، وهذه المفارقات قد تكون هي بدورها

استباقا (Anticipation) لأحداث لاحقة، أو استرجاعا (استعادة) (Rétrospection) لأحداث ماضية، ويمكن للمفارقة الزمنية- كما يقول- أن تذهب في الماضي أو في المستقبل، بعيدا أو غير بعيد عن اللحظة الحاضرة، التي يتوقف فيها السرد، تاركا مكانا للمفارقة الزمنية، هذه المسافة الزمنية يطلق عليها اسم مدى المفارقة الزمنية (Portée de l'anachronie) التي ربما اشتملت هي نفسها على مدة سردية طويلة أو قصيرة، هذه المدة يسميها سعة المفارقة (Amplitude)[٢].

ونتيجة لدراسة العلاقات بين الزمنين، زمن الدال وزمن المدلول، نجده- إلى جانب حديثه عن الترتيب، أو النظام (L'ordre)- يتحدث أيضا عن المدة، أو الاستغراق الزمني (La durée) وعن التواتر (La fréquence).

فعن المدة يرى جنت أن مقارنة مدة السرد بمدة الأحداث التي يرويها هذا السرد، عملية أكثر صعوبة من دراسة الترتيب والتواتر، وذلك لسبب بسيط هو أن أحدا لا يستطيع قياس مدة سرد ما، ومن ثم نفتقد النقطة المرجعية أو درجة الصفر التي هي، في حالة الترتيب، تزامن بين المتتالية التاريخية والمتتالية السردية[٣]، ومن ثم يرى أنه

يجب العدول عن قياس تغيرات المدة إلى ملاحظة الإيقاع الزمني، المتمثل في الحركات السردية الأربع: الحذف، والوقفة الوصفية، وبينهما وسيطان هما: المشهد والمجمل[4].

أما الحذف (Ellipse): فهو أقصى سرعة يمكن أن يسير بها السرد، وتتمثل في تخطيه لأحداث بأكملها دون الإشارة إليها، وكأنها ليست جزءا من الأحداث، مثل إلغاء التفاصيل الجزئية أو الأحداث قليلة الأهمية في سياق ما... إن مدة السرد هنا تساوي صفرا، بينما مدة الحدث تشغل حيزا في التاريخ طال أم قصر.

والوقفة الوصفية (Pause): هي، علي عكس الحذف، السرعة الدنيا التي يمكن أن يسير بها السرد، و هي عبارة عن توقفات وصفية تقطع المسار الزمني للسرد، مما يعطي إحساسا بتوقف الزمن بينما يستمر السرد في تقديم الكثير من التفاصيل الجزئية، حول موضوع ما.

والمشهد (Scéne): وفيه يترك السارد الأحداث تتوالى بنفسها دون تدخل منه، فتتركز الأحداث من ثم وتعرض بكل تفاصيلها، وفيه يتطابق الزمن التاريخي وزمن السرد.

والمجمل (Sommaire): هو اختصار أحداث جرت في عدة أيام، أو شهور، أو سنوات في بضع فقرات أو بضع صفحات، دون تفاصيل أعمال أو أقوال[٥].

وأما عن التواتر السردي (La fréquence) أو علاقات التكرار بين الحدث وسرده، فإن ذلك لم يدرس إلا قليلا قبل جنت[٦]، الذي يراه مظهرا من المظاهر الأساسية للزمنية السردية، إذ إن الحدث ليس بقادر على الوقوع فحسب، بل يمكنه كذلك أن يقع مرة أخري، أو أن يتكرر عدة مرات، وفي المقابل فإن الملفوظ السردي هو الآخر يمكنه أن يقع مرة أخري، أو أن يتكرر عدة مرات. وبين قدرة الحدث، وقدرة الملفوظ السردي على التكرار يقوم نسق من العلاقات؛ فيمكن لحدث وقع مرة واحدة أن يُروى مرة واحدة، ويطلق على هذا النمط اسم الحكاية التفردية (Récit singulatif) وهي تخرج بذلك عن حد التواتر، إذ ليس هناك تكرار لا على مستوى الحدث، ولا على مستوى السرد. وأما النمط الثاني ففيه يُروى مرات لا متناهية ما وقع مرات لا متناهية، ويرده إلى النمط الأول لتوافق تكرارات الواقع مع تكرارات السرد؛ فهو يرى أن التفردي لا يتحدد بعدد مرات وقوعه من الجانبين، بل بتساوي هذا العدد. والنمط الثالث: أن يُروى مرات لا متناهية ما وقع مرة واحدة،

وهذا النمط يسمى السرد التكراري (Récit Répétitif) وأما النمط الرابع ففيه يُروى مرة واحدة ما وقع مرات لا نهائية، ويسميه (Récit itératif)[٧].

ونحن من جانبنا سنحاول أن نوظف هذه الآليات لبحث خصائص البنية الزمنية في سورة الرحمن، بما يتوافق مع طبيعة النص، وروحه.. دون أن نتمسك بحرفية المنهج، وإنما سنفسح المجال للنص أن يوجه طريقة البحث فيه، فهذا أنفع للقراءة..

# البنية الزمنية

# في سورة الرحمن

حين نشرع في البحث عن خصائص الزمن السردي في سورة الرحمن، سنجد أنفسنا بإزاء بنيتين زمنيتين متمايزتين تنطوي إحداهما على الأخرى: بنية كبرى تمثل التقسيم الرئيس للنص، وهي تنطوي على بنيات صغرى تتجاور بكيفيات معينة لتمنح النص خصوصيته الزمنية التي يتجلى فيها.

# البنية الزمنية الكبرى

والزمن يتتابع في البنية الزمنية الكبرى لسورة الرحمن تتابعا تراتبيا، تعرض فيها الرحلة بين الدنيا والآخرة، عرضا متتابعا، بكل تفاصيلها في آيات قلائل، أكثرها تقرير بنعم الله وآلائه، أو تذكير بها، أو تبكيت على التكذيب بها... (٣١ مرة من مجموع ٧٨ آية).

وتبدأ تفاصيل الرحلة بعرض الآلاء التي تمثل العطايا والمنح التي أنعم الله بها على خلقه في الدنيا: ( الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)... )- وهي تبدأ بخلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتسخير كل ما في الكون له، رحمة به، وفضلا من الرحمن عليه...

وتستمر الحياة إلى أجل معلوم، يفنى فيه كل من على الأرض: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)...

ثم يختم الجزء الأول من الرحلة بتأكيد فضله تعالى على العالمين، وحاجتهم الدائمة إليه: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩).

ثم بعد ذلك يأتي جانب الرحلة المخوف الرهيب؛ حيث لم يكن عبثا كل ما مضي من حياة الإنسان، ومن نعم الله التي أسبغها عليه... بل إنه موقوف يوما ومسئول عن حياته وعن أعماله فيها: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَان (٣١)...

يقول الطاهر بن عاشور في حديثه حول الآية: " هذا تخلص من الاعتبار بأحوال الحياة العاجلة إلى التذكير بأحوال الآخرة والجزاء فيها انتقل إليه بمناسبة اشتمال ما سبق من دلائل سعة قدرة الله تعالى، على تعريض بأن فاعل هذا أهل للتوحيد بالإلهية، ومستحق الإفراد بالعبادة، وإذ قد كان المخاطبون بذلك مشركين مع الله في العبادة انتقل إلى تهديدهم بأنهم وأولياءهم من الجن المسولين لهم عبادة الأصنام سيعرضون على حكم الله فيهم "[٨].

ومن ثم تكون خاتمة الرحلة بالبعث والقيامة والحساب، ويكون الجزاء عقابا وثوابا، حال عذاب، وحال نعيم: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَان (٣٧)... يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَام (٤١) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤)... حال العذاب والعقاب، في آيات قلائل، يليه حال النعيم ثوابا على ما تقدم من

عمل طيب في الدنيا طلبا لرضوان الله وخوفا من عقابه، وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)... حتى نهاية السورة.

وهذه البنية الزمنية الكبرى، بتحولاتها تلك، تمثل السنة التي أرادها الله في الوجود: يخلق الخلق، ويمنحهم من النعم ما يؤهلهم لحياة متكاملة، يحيونها بكامل إرادتهم، يتركهم فيها وما يريدون، بعد أن يبين لهم سبل الخير وجزاء سالكها، وطرق الشر وعاقبة سلوكها حتى يتوفاهم الموت.. ومن ثم يأتي الجميع يوم القيامة، كل يحاسب بعمله، من أحسن يجازى بإحسانه، ومن أساء يحاسب بإساءته.

# البنى الزمنية الصغرى

وبعيدا عن تلك البنية الزمنية الكبرى، التي تقسم النص إلى مراحله الثلاث، ليس لنا أن نبحث عن تراتبية مشابهة داخل البنى الزمنية الصغرى، وذلك من حيث إن الغرض، كما نرى، هو عرض صور لآلاء الله المتعددة، ونعمه الكثيرة على خلقه، فناسب ذلك أن تأتي مجموعة الصور معروضة كل واحدة مفردة وحدها، ليتلقاها المتلقي وحدها، ويتوقف مليا عندها، حين تنكسر رتابة العرض المتواصل، ويجد المتلقي نفسه أمام صورة واحدة في كل مرة.. مما يحمله على تجديد آفاق التلقي ليتابع هذا السيل الهادر من صور الآلاء والنعم.

والنص يفتتح بمفارقة زمنية تؤكد هذا التفرد الذي يميز كل آية من آيات الله وكل نعمة من نعمه على خلقه، حيث يبدأ الزمن باستباق، يعجل بتقديم كبرى الآلاء والنعم على الخلق، وهو تعليم القرآن، يقدمه على ما هو سابق عليه منطقيا وهو خلق الإنسان الذي سيتعلم القرآن.

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)

فالأخبار الثلاثة لا تأخذ ترتيبها الزمني المتتابع، فخلق الإنسان يأتي في الترتيب الزمني قبل تعليمه القرآن ( باعتبار أن متعلم القرآن هو

الإنسان، وليس الملائكة، ولا جبريل عليه السلام ) بل إن خلق الإنسان يأتي بعد تعلمه البيان كذلك. فهل كان تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان، وعلى تعليمه البيان، من باب تقديم ما هو أسبق قدما من ضروب الآلاء والنعم، وهي نعمة الدين، ثم من نعمة الدين قدم ما هو سنام في أعلى مراتبها، وأقصى مراقيها، وهو إنعامه بالقرآن، وتنزيله وتعليمه، لأنه أعظم وحي الله رتبة وأعلاه منزلة.. وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين وليحيط علما بوحيه وكتبه..؟! [9]

وفي هذا الصدد، يرى صاحب الأساس أن خلق الإنسان ذكره الله عز وجل بين تعليمين: تعليمه القرآن وتعليمه البيان، إشارة إلى أن ميزة الإنسان الأساسية هي استعداده للعلم، وتقديم القرآن يفيد أن أعظم ما يتعلمه الإنسان هو القرآن. [10]

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ولا بد أن رفع السماء كان سابقا في الحدوث على كل ما مضى من خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وعلى تسيير الشمس والقمر بحسبان...

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) ويحتاجها النجم والشجر، فوضعها سابق على وجودهما.

ثم مرة أخرى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤) في استعادة توضيحية لمادة خلقه.

وكان من قبل: خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ(١٥) وكلها مفارقات زمنية تدل على أن كل صورة من هذه الصور، وكل نعمة من هذه النعم، هي آية كبرى وحدها، تستحق الوقوف أمامها منفردة، والتفكير فيها وحدها، ومن ثم شكرها، بإرجاع الفضل في إيجادها إلى الخالق تبارك وتعالى وحده.

وتستمر المفارقات الزمنية في الهيمنة على الخطاب، ويستمر معها التركيز على فرادة الصور المعروضة لآلاء الرحمن، وتفردها بصفات معجبة معجزة، تدل على عظم القدرة وطلاقتها في الكون، حيث تتصرف فيه، وتقيم تكوينه، وتُجري الأقدار فيه بما تشاء، وفي الوقت الذي تشاء. وتقوم المفارقات الزمنية، بما تتضمنه من استرجاعات تنفتح على الماضي: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)... أو استباقات تنفتح على

المستقبل: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١)... بدور كبير في التأكيد على هذه الطلاقة.

وتستمر هيمنة المفارقات الزمنية، بل تشتد مع أحداث المرحلة الثالثة، التي تأتي بعد فاصل زمني يمتد مستبقا إلى عالم آخر: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) ينفتح فيه الكلام على القيامة وآلاء الآخرة، فنراها رأي العين بدءا من هذه الصورة الرهيبة لانشقاق السماء، وانصداعها حتى أصبحت وردة كالدهان، ثم آية التذكير ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) التي تحولت في هذا السياق الخاص لتعطي معنى الوعيد، حين لن يكون هناك حاجة لسؤال إنسي أو جني عن ذنوبه التي جاء بها، حيث يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام، ويسحبون إلى جهنم التي كانوا بها يكذبون.

وفي هذا الاستباق نلتقي كذلك مع الجانب الآخر، جانب النعيم الذي يستغرق ثلاثا وثلاثين آية، بما يمثل أكثر من ٤٢٪ من مساحة النص، يتكيء فيها الخطاب على الوصف، ويتوقف الزمن في استراحة تهدأ فيها النفس، ويسكن روعها بعد انقطاع من رهبة المقطع السابق في جهنم وعذابها.

ويبقى، بعدُ، أن نشير إلى أن الترتيب الزمني هكذا في حركته الكونية الانتقائية، التي تشير إليها المفارقات الزمنية في النص، يسهم بشكل كبير، إلى جانب تأكيد طلاقة القدرة فيما مر بيانه، يسهم في إبراز الآلاء الكبرى في الكون، وتقديمها في صورة مكثفة تملأ النفس روعة من جلال آلاء الرحمن التي تملأ الكون كله على مستوى المكان، وتملأ الدهر كله على مستوى الزمان. آلاء قوامها الرحمة، وسبب وجودها الرحمة، ونتيجة وجودها الرحمة... مما يجعل المرء لا يرى إلا آيات الله تملأ الوجود، ولا يجد إلا رحمته تعم الخلق.

## علاقات التواتر السردي

يتضمن النص بعض علاقات التواتر السردي، مثل الذي نشعر به في حالات تكرار اللفظ، كما بين قوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) وقوله بعد ذلك: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)

فالملفوظ السردي، مثل الحدث، يمكنه أن يتكرر أكثر من مرة، وهذا التكرار يدل على نسق من العلاقات تقوم بين الملفوظ السردي والحدث. ففي الحالة السابقة، وقع الحدث ( حدث الخلق ) مرة واحدة، بينما تكرر الملفوظ السردي أكثر من مرة، وكما قلنا، جاء

التكرار اللفظي هنا استعادة توضيحية لمادة خلق الإنسان، وإشارة إلى ما في ذلك من نعمة كبرى؛ فمن ذلك الطين اليابس، تلك المادة التي لا ينتظر منها أن تعطي غير الطين، أو الفخار، على أحسن الأحوال- من هذه المادة خَلَقَ الخالقُ الإنسانَ، ذلك الكائن المكرم، المميز، المتميز من جميع المخلوقات بسمات وبملكات راقية متفوقة... جعلته، دون غيره، أهلا لتلقي وحى السماء، والقيام بحق الخلافة على الأرض.

وثم نمط آخر من التكرار السردي نجده في قوله سبحانه: ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) الذي يتكرر إحدى وثلاثين مرة، بما يقترب من نصف العدد الكلي لآيات السورة، وفيه يُروى مرات متعددة ما وقع مرات متعددة، وهذا النمط يعده جنت Genette نمطا تفرديا singulatif، لتوافق تكرارات الواقع مع تكرارات السرد... ولعل هذا يتوافق مع الغرض الرئيس في السورة، الذي هو عرض صور لآلاء الله المتعددة، ونعمه الكثيرة على خلقه، فناسب ذلك أن تأتي مجموعة الصور معروضة كل واحدة مفردة وحدها.

ولقد جاء قوله تعالى ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) أولا (١- ٣٠) بعد ذكر نعم الله عز وجل. وجاء ثانيا (٣١- ٣٦) بعد ذكر ما فيه وعيد وتذكير بالعبودية. وجاء ثالثا ( ٣٧- ٤٥) في معرض الكلام عن يوم

القيامة، وما أعد الله فيه للمجرمين، ثم بعد ذلك ( ٤٦- ٧٨) يأتي في سياق نعم الله في الآخرة على المتقين؛ مما يدل على أن هذه الآية تتكرر لتستخرج الشكر الذي هو العبادة والتقوى من خلال التذكير بالنعمة، ومن خلال الترهيب، ومن خلال الترغيب، ومن خلال الإنذار والتبشير، ففي كل مرة تأتي لتستخرج الشكر من خلال معنى جديد، ومن خلال إتيان المكلف من جانب من الجوانب التي تستخرج شكره.[١١]

يقول النسفي في تفسيره لها: " كررت هذه الآية.. إحدى وثلاثين مرة، ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما ".[١٢]

ويقول البغوي: ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) أيها الثقلان، يريد من هذه الأشياء المذكورة وكرر هذه الآية في هذه السورة تقريرا للنعمة وتأكيدا في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع يعدد على الخلق آلاءه ويفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها.

وقال القشيري: وكرّر سبحانه هذه الآية في غير موضع،على جهة التقرير بالنعمة على التفاصيل، نعمة بعد نعمة.

فالآية تتعدد مع تعدد النعم، والنعم جمة لا تحصى، ولذلك جاءت أول مرة بعد اثنتي عشرة آية، ثم بعدها أصبحت تأتي بعد كل نعمة تقريبا، كل مرة بمعنى مختلف يسهم في إبراز نعمة جديدة، أو نعم جديدة..

## تحولات صيغة الفعل

وضمن الحديث عن البنية الزمنية للنص، وما يتخللها من مفارقات زمنية، يأتي، ضرورة، الحديث عن الأفعال بوصفها محركات أساسية فيها، بين زمن ماض وآخر حاضر، أو حاضر يكتسب بحضوره استمرارية وديمومة تمتد في المستقبل، وتقوم بدورها في التوجيه الدلالي للنص.

والنص يبدأ مع أفعال المضي، فتجري الأحداث وكأن أمرها قد انقضى ووقعت منذ وقت بعيد: [ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣)

عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ(١٥) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩).. ] تأتي الأفعال في صيغة الماضي: عَلَّمَ- خَلَقَ- عَلَّمَهُ- رَفَعَهَا- وَضَعَهَا، ثم: خَلَقَ مرة ثانية: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤)، وهو آدم عليه السلام، كما مر بيانه، فهل خَلَقَ الرحمنُ آدمَ أبا البشر، وعَلَّمَهُ الْبَيَانَ، ثم كان انتقال البيان منه عليه السلام إلى بنيه من بعده انتقال وراثة ؟! أم أن القلم قد جرى بتقدير هذه الأمور، فأصبحت كالأمور النافذة، وجاء عرضها كأنها أحداث مضى وقوعها، وصارت نعما وآلاء قائمة بالفعل، تستوجب شكرا من المستفيد الرئيس بها- الإنسان ؟!

وهذه الأفعال الماضية تتخللها أفعال مضارعة بما تنطوي عليه من دلالة على الاستمرارية والديمومة، فمن استمرارية الطاعة والخضوع، إلى استمرارية العدل، وإقامة الوزن بالقسط، إلى دوام وجوب الشكر بدوام النعم: وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)، (١٦)، (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩).

ومنذ الآية التاسعة عشرة لا يظهر الفعل الماضي إلا في حالات قلائل. وفيها يتحول عن دلالته الأصلية على المضي إلى الدلالة على الاستقبال كما في قوله تعالى: إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا (٣٣)- وفي قوله سبحانه: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ (٣٧)- وفي قوله جل جلاله: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)- وفي قوله: تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨).

وبذلك نتحول منذ الآية التاسعة عشرة إلى زمن جديد حاضر، أو زمن فيه استباق إلى أحداث سيأتي وقوعها فيما بعد، فتستمر المضارعة: بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [ ٢٨ مرة ] (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) (٢٣) (٢٥) وَيَبْقَى (٢٧) (٢٨) يَسْأَلُهُ (٢٩) (٣٠) سَنَفْرُغُ (٣١) (٣٢) تَنْفُذُونَ (٣٣) (٣٤) يُرْسَلُ- تَنْتَصِرَانِ (٣٥) (٣٦) (٣٨) يُسْأَلُ (٣٩) (٤٠) يُعْرَفُ... فَيُؤْخَذُ (٤١) (٤٢) يُكَذِّبُ (٤٣) يَطُوفُونَ (٤٤) (٤٥) (٤٧) (٤٩) تَجْرِيَانِ (٥٠) (٥١) (٥٣) (٥٥) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ (٥٦) (٥٧) (٥٩) (٦١) (٦٣) (٦٥) (٦٧) (٦٩) (٧١) (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ (٧٤) (٧٥) مُتَّكِئِينَ (٧٦) (٧٧).

ثم تأتي صيغة المبني للمجهول، فقط في حالات العقاب- في حالة التفكير في النفوذ من أقطار السماوات والأرض دون سلطان من الرحمن،

فهنالك: يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥)- وفي القيامة: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)- لأنه في ذلك اليوم: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١).

وكأن ثم اهتماما بالحفاظ على حالة النفس الفرحة المتطامنة إلى رحمة الله، وعلى جو النص الشعوري، فالعقاب، ومع كونه رحمة- حين يكون رادعا عن الخطأ- لن يكون في النص من اختصاص الرحمن، أو الصوت المتحدث فيه، بل يأتي منسوبا إلى مجهول.

## الإيقاع الزمني

يتمثل الإيقاع الزمني، عند السرديين، كما سبق بيانه، في حركات سردية أربع، يتوزع بينها جريان الأحداث، وتقديم الأخبار، سرعة وبطئا.. هي من الأسرع إلى الأكثر بطئا: الحذف، والمجمل، والمشهد، والوقفة الوصفية.

وفي سورة الرحمن نبدأ النص مع جملة اسمية، يتوقف معها الزمن، بل يتوقف الكون كله في صمت مهيب ليستمع إلى كلمة- آية- هي اسم من أسماء الله الحسنى: الرَّحْمَنُ (١) ويتولد في النفس شوق

واستشراف لمعرفة الخبر، المسند، الذي سيتعلق بهذا الرحمن، وكيف أنه ينبغي أن يكون أثرا من آثار رحمته.

ومن هنالك ينطلق الزمن في لمح خاطف، مع جمل فعلية متتالية، لا رابط ماديا بينها، كلها تتعلق بالرحمن، مسندة إليه، عارضة أفعاله في صيغتها الماضية، وفي إيجازها الشديد تمر في ومضات سريعة كاشفة عن قدرة مطلقة، ورحمة واسعة: عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤).

ومن ثم يبطيء السرد، بل يتوقف مع توقف جريان الأفعال، وبدء جملة اسمية- آية كبرى من آيات الرحمن، تحتاج إلى وقفة تفكر عميق وتدبر واع: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) إنها القدرة المطلقة، التي تتصرف في الكون بما تشاء، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) يخضع الكون كله، بمن فيه وبما فيه، لمشيئتها القاهرة طوعا أو كرها.

وهذه القدرة المطلقة الجبارة، التي تملي قوانينها على الكون كله، تقرب الإنسان منها، وتظهر رحمة به، وحبا له، في هذا المشهد الذي يخاطب فيه الرب عبده الكريم- الإنسان: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ

(٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وهاهنا يتساوى زمن السرد وزمن القول، لأن اللفظ في كليهما واحد لا تغيير فيه.

ويبطيء الزمن، ثم يتوقف مع الجملة الاسمية، ثم مع الوصف: وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢).

ويعود التوجه بالقول إلى المخاطب، ويتساوى زمن القول، وزمن السرد مرة أخرى، بل إحدى وثلاثين مرة على مدار النص: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)...

ويسير الزمن من بعدُ وئيدا، حين يختلط الفعل بالوصف، ويهيمن الوصف على السرد، في دعوة واضحة للتأمل فيما يساق من أخبار: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥).. مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩).. يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) ومازالت الأخبار تمضي في تأكيد قدرة الرحمن، وبيان آثار رحمته في خلقه.

وقد نشعر بتوقف الزمن في بعض مراحل السرد، مع الجمل الاسمية الواصفة، التي تشير إلى قضايا كبرى، مثل قضية التوحيد، في

قوله تعالى: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فهو وحده الخالق والمتصرف في كونه.. أو بما يتصل بهذه القضية ويؤكدها من إشارة إلى عظمة قدرة الرحمن وعلمه وحكمته.. بما يصرف به شئون خلقه، ويدير به أمور كونه: بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠).. أو تشير إلى كل ذلك، مضيفة إليه عموم الرحمة وشمولها كل الخلائق، مهما تعددت مواقفهم، بين مؤمن به ومكذب: وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤)، والجميع ينتفع بها.. وثم تنتهي المرحلة الأولى من مراحل النص في رحلته بين الدنيا والآخرة.

وتبدأ المرحلة الثانية، مرحلة ختام الحياة الدنيا، والانتقال إلى الحياة الأخرى، تبدأ بحيادية زمنية، يتساوى فيها الزمن السردي بزمن الإخبار الفعلي، حيث يظهر المخاطَبُ في النص: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)..

ويسير الزمن بطيئا، يمتزج فيه جريان الأحداث ووصفها: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) مما يمنح فرصة للتأمل في عظمة الرحمن، وفضله العميم على خلقه..

ثم يعود المخاطَب إلى النص، ويعود معه التوافق الزمني بين السرد والفعل: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١).. يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣).. يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥)..

ثم ننتقل إلى الحياة الأخرى، ومن مقدماتها انشقاق السماء حتى تكون وردة كالدهان، وهنالك يسير الزمن بطيئا، حيث يهيمن الوصف على السرد، وبخاصة مع وصف ما يقع بالمجرمين من عقاب، حيث تثّاقل حركة الانتقال بين الأحداث...: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧).. فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩).. يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١).. هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤)..

ويتمهل الإيقاع السردي كذلك في عرض ثواب الذين يخشون ربهم، حيث يهيمن الوصف على السرد الإخباري. ولكن الحال هاهنا مختلف عن الحال السابقة لدى عقاب المجرمين، فالإيقاع تباطأ هناك ترهيبا من هول ذلك اليوم، ومن حال المجرمين فيه... وتمهله هنا يأتي إغراء وترغيبا في هذه الحال وما فيها من نعيم وحبور: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦).. ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨).. فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ

(٥٠).. فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢).. مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤).. فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦).. كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨).. هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠).. وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢).. مُدْهَامَّتَانِ (٦٤).. فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦).. فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨).. فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠).. حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢).. لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤).. مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦).. تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨).

وهكذا كان الإيقاع الزمني في النص متمثلا في الحركات السردية التي تناسب المقامات التي وردت فيه. ففي المرحلة الأولى منذ بداية السورة وجدنا الزمن يتراوح بين السرعة الخاطفة التي تقوم بدور كبير في إظهار قدرة الرحمن، وتعدد نعمه على الخلق وتنوعها، والسرعة الدنيا تكون مع الآيات التي تحتاج إلى تأمل وتفكر.. وبعد ذلك يختفي الإيقاع السردي السريع في بقية السورة، فيهيمن الإيقاع الطبيعي على السرد، في المرحلة الثانية، مع خطاب الثقلين الذي يتساوى فيه زمن السرد وزمن الفعل.. وفي المرحلة الثالثة، مرحلة الحساب، وما يكون فيه من عقاب وثواب، يكاد الإيقاع من شدة بطئه يتوقف؛ لنتأمل

الحالين في تأن معتبر. وهذا البطء يقوم بدور مزدوج في هذه المرحلة، ففي حالة العقاب يمثل ثقلا على النفس، يتآزر مع صور العقاب في الترهيب من الوقوع في مثله.. وفي حالة الفوز بالجنان يكون بطء الإيقاع لونا من ألوان التذوق المستمتع بما فيها من نعيم، وفي ذلك ما فيه من إغراء على العمل والاجتهاد للوصول إلى تلك المنزلة.

الهوامش:

[1] - Tzvetan Todorov, Les catégories du récit Littéraire, Communications n°8, éd. du Seuil, coll. Points, 1981, P. 145

[2]- Gérard Genette, Figures III, éd du Seuil, 1972, P. 89- 90

[3] - Ibid. P. 122

[4] - Ibid. P. 129

[5] - Ibid. P. 130

[6] - Ibid. P.145

[7] - Ibid. P.145

٨- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨/ ٤٢٥٢

٩- انظر: الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٤٤٣

١٠- سعيد حوى، الأساس في التفسير، ١٠/ ٥٦٤٦

١١- انظر: الأساس في التفسير، ١٠/ ٥٦٥٤

١٢- تفسير النسفي، دار إحياء الكتب العربية، ٤/ ٢١٤

# الصيغة السردية

## الصيغة القرآنية

حين تخرج الكلمات عن ثباتها المعجمي، حيث تعيش هناك فرادى، في عالم المعاني الحقيقية، وتتشكل من ثم في صورتها الخطابية الشفاهية أو الكتابية، وينبعث فيها روح النص الذي يميزها عن كل نظائرها بسمات خاصة وفريدة.. هنالك يولد ذلك الكائن الجديد، بملامحه الخاصة التي لا يشاركه فيها كائن سواه.. هذا الكائن الجديد هو النص، وملامحه الخاصة هي صيغته السردية، والبحث فيها هو بحث في خصوصية الملامح التي يتشكل فيها النص.

ونحن بما نقوم به هنا نحاول الكشف عن تلك الخصوصية النصية في سورة الرحمن، حيث الصيغة هي الطريقة التي يجري بها تشكيل الكلام على نحو خاص ليعطي دلالة معينة.

وإذا عدنا إلى أصحاب نظرية السرد، فسوف نجدهم يفردون لها مبحثا خاصا، ويعدونها مقولة ثالثة إلى جانب المقولتين الأخريين: زمن السرد، والرؤية السردية. فقد كان تودوروف Todorov يرى أن مقولة

الصيغة، ويسميها: سجلات الكلام[1] (Registres de la parole) تتعلق بطريقة الراوي في عرض المحكي وتقديمه. فنحن بواسطة الكلمات نستحضر كونا مصنوعا من الكلمات، وآخر مصنوعا من النشاطات غير اللفظية، وهذا لا يطرأ عليه تنوع فى الصيغة، إنما تنويعات تاريخية تُنتج، بنجاح متفاوت وحسب مواضعات العصر، وهم الواقعية. وبعكس ذلك فإن لقص الكلام أنواعا متعددة؛ لأن الكلام يمكن أن يأتي بهيئات متغايرة، متفاوتة الأهمية؛ ومن ثم يعرض لاقتراح جنت Genette الذى يميز فيه بين درجات ثلاث من الإقحام: الأسلوب المباشر، وفيه لا تطرأ على الخطاب أية تعديلات. والأسلوب غير المباشر أو " الخطاب المحكي " حيث نحافظ على مضمون الرسالة التى افترض التلفظ بها، ولكن بإدماجه نحويا في قصة الراوي، كأن نختصر أو نحذف الانطباعات العاطفية. والدرجة الأخيرة من تغيير كلام الشخصية هي: الخطاب المروي، ويُكتفى فيه بتسجيل مضمون عملية الكلام دون الاحتفاظ بأي عنصر منه[2].

وقد قسم البلاغيون القدماء الكلام إلى خبر وإنشاء، وقسمه البلاغيون المحدثون إلى صيغة الخطاب المسرود وصيغة الخطاب المعروض، حيث يرى تودوروف أن هناك نمطين رئيسين من أنماط

السـرد، همـا: التمثيـل ( العـرض ) ( représentation ) والحكـي (narration ). أما جنت فيتحدث عن حكايـة الأحـداث، وأنهـا مهمـا تكن صيغتها فهي دائما حكاية، أو نقل لغير اللفظي إلى ما هو لفظي.

ووجه الحصر من وجهة نظر البلاغي القديم: أن الكلام إما أن يكون لنسبته خارج يطابقه أو لا يطابقه، أو لا يكون لها خارج، الأول الخبر، والثاني الإنشاء[٣].

وبمقارنة ما قاله البلاغيون العرب بما رأيناه عند البلاغيين الغربيين المحدثين، لن نجد فرقا كبيرا، بل إن مبحث الخبر والإنشاء، مثله في ذلك مثل بقية المباحث البلاغية، يشهد على دقة البلاغي العربي القديم، وعلى يقظته وفطنته في التعامل مع النصوص، واستنباط خصائص الأداء فيها. ولكنا نرى أن حصر الكلام في الخبر والإنشاء عند البلاغي العربي القديم، يوضحه حصره في المسرود والمعروض عند البلاغي الغربي المحدث. فالكلام الخبري هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته، في تعريف البلاغي القديم، وهو كلام يتفرد بإلقائه متكلم يحتل موقعا خارجه، كما في الخطاب المسرود الذي يختفي فيه تماما كل صوت ماعدا صوت الراوي، الذي يسرد الأحداث وأقوال الشخصيات، سواء بسواء،

بلغته هو، فلا يعود من كلام الشخصيات غير أثر ضعيف، ربما يُرجع إليهم لكنه لا يعبر عنهم.

والإنشاء هو: الخلق ابتداء، فلا علاقة له بصدق أو كذب لعدم وجود واقع خارجي يصدقه أو يكذبه كالخبر، على نحو ما مر، والطلبي منه الذي يُطلب به حصول شيء لم يكن موجودا عند الطلب كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء، وكلها تنطوي على خصيصة القول المباشر، حيث الكلام هنا يكون خطابا مباشرا بين باث ومتلق، وهذا هو الشأن في الخطاب المعروض؛ فالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء كلها تتم مباشرة بين مرسل ومستقبل.

## الصيغة السردية في سورة الرحمن

تمتاز سورة الرحمن بإيقاع خاص، سواء في فواصلها التي تأتي في الدرجة العليا من البلاغة الصوتية، أم في ذلك الإيقاع المعجز الذي يحدثه ذكر الآية الكريمة ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) مرة بعد مرة، أم في ذلك الإيقاع الذي نشعر به في السورة كلها، ونسميه إيقاع التقابل..

وكل ذلك يحدد ملامح الصيغة السردية، ويعمق، في الوقت ذاته، أثرا كبيرا يتركه النص في النفس، تبقى معه سورة الرحمن آية حسن لفظي، وجمال إيقاعي، إضافة إلى كونها آية رحمة، كما رأينا فيما مر بنا من قبل. وفيما يلي بيان ذلك.

## الفواصل

أما الفواصل فهي مما يخص البنية القرآنية دون سواها، اسما لأواخر الآيات، لفصلها بين الآية وما بعدها..[4] وهي تقابل القافية في الشعر، وتقابل قرينة السجع في النثر، وكلتاهما تمثلان تنغيما اعتادته الأذن العربية، ودرجت عليه من قبل نزول القرآن، وجاء عليه القرآن.

فالأذن العربية درجت على الطرب اللغوي، والتطريبُ اللغوي من خصائص العربية، ومن أسس جمالياتها الصوتية.. ولم يحرمها القرآن ما درجت عليه واعتادته.. فالفاصلة القرآنية تمكن لهذا التطريب الذي تجد له النفس أريحية وطمأنينة، وتستقر به المعاني في القلوب استقرارا فيه رضا وقبول... ولذلك فقد كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب،

وفي ذلك يقول سيبويه: " إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا "[٥].

إن فواصل القرآن ومقاطعه، فيما يرى بعضهم، إنما هي من أبرز مصادر الموسيقى في القرآن، وأبلغها إعجازا موسيقيا، ذلك لأنها تقابل القوافي في الشعر، والقافية هي قرارة الوزن وغاية الحركات والسكنات التي يبلغها الشاعر، وهي السر الذي دعا كل من أتى بشعره أو ساق نصا بين يديه إلى أن يقول: أنشدنا، والمشابهة التي كان ينبغي أن تكون بين مألوف العرب في استعمال لغتهم ولاسيما الشعر ونصوص القرآن توضح ذلك، وأكثر ما في الكتاب العزيز أمرها كذلك.[٦]

ويوضح الأمر أكثر ما يقول الرافعي في إعجاز القرآن: " وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها.."[٧]...

وفوق كل هذا، فإننا نرى أن الفاصلة، دليل من دلائل قوة الأداء القرآني وجلاله، وهي من دلائل إعجاز هذا الكتاب العظيم، الذي جاء على لغة العرب، ووافق طرائقهم في التعبير، بصورة مثالية لم يعهدوها من قبل، لا في سجع كهانهم، ولا في شعر شعرائهم. فشاعرهم قد يصل به الأمر إلى البحث عن القافية أولا ثم يقيم لها بيتا، ومثله ساجعهم، أو لعله أقبح منه في ذلك حين تقف قرينته غريبة في السياق تبحث عن إلف لها فلا تجد... لكن الفاصلة أمرها مختلف، فهي وإن كانت مما نشعر بأهميته الكبرى في القرآن الكريم من جهة البنية اللفظية، وهي وإن كانت تقوم بما سبقت الإشارة إليه من دور خطير في توطيد أركان المعنى وفي إقراره في القلب في دعة وطمأنينة... إلا أنها- فيما نراه في مواقعها العديدة في القرآن الكريم- غير مقصودة لذاتها، وإنما هي أداء طبيعي، لا يصلح إلا هكذا؛ بدليل أنها لا تثبت على روي واحد، بل تراوح بين حرفين أو حروف مختلفة، دون أن يشعرنا هذا الاختلاف بنبو في الإيقاع، أو بتنافر في الموسيقى، وإنما تستريح النفس إليها، وتطمئن، سواء اتفقت الحروف أم اختلفت.

والفاصلة في سورة الرحمن تنتهي بالنون مع الألف، وهو الغالب في فواصل القرآن بعامة[٨]، وفي سورة الرحمن بخاصة، وفي آيات قلائل

تنتهي بما هو قريب منها، مثل الميم مع الألف، وهو التالي للنون في القرآن وفي سورة الرحمن كذلك (٧ مرات)، أو الراء مع الألف، وهو التالي للميم في القرآن وكذلك في سورة الرحمن (مرتان) وقد تستبدل الياء بالألف مع النون (مرة واحدة في سورة الرحمن) أو الواو بالألف مع النون (مرة واحدة في سورة الرحمن).. أي أن الفاصلة في القرآن، وبالتالي، في سورة الرحمن، فاصلة بلغت الغاية في التطريب، أو في الجمال الصوتي، فيما هو مركوز في النفس العربية نتيجة لميراث طويل من التذوق الجمالي لصوتيات اللغة.

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) بِحُسْبَانٍ (٥) يَسْجُدَانِ (٦) الْمِيزَانَ (٧) الْمِيزَانِ (٨) الْمِيزَانَ (٩) لِلْأَنَامِ (١٠) الْأَكْمَامِ (١١) وَالرَّيْحَانُ (١٢) تُكَذِّبَانِ (١٣) كَالْفَخَّارِ(١٤) مِنْ نَارٍ(١٥) تُكَذِّبَانِ (١٦) الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) تُكَذِّبَانِ (١٨) يَلْتَقِيَانِ (١٩) يَبْغِيَانِ (٢٠) تُكَذِّبَانِ (٢١) وَالْمَرْجَانُ (٢٢) تُكَذِّبَانِ (٢٣) كَالْأَعْلَامِ (٢٤) تُكَذِّبَانِ (٢٥) فَانٍ (٢٦) وَالْإِكْرَامِ (٢٧) تُكَذِّبَانِ (٢٨) فِي شَأْنٍ (٢٩) تُكَذِّبَانِ (٣٠) الثَّقَلَانِ (٣١) تُكَذِّبَانِ (٣٢) بِسُلْطَانٍ (٣٣) تُكَذِّبَانِ (٣٤) تَنْتَصِرَانِ (٣٥) تُكَذِّبَانِ (٣٦) كَالدِّهَانِ (٣٧) تُكَذِّبَانِ (٣٨) وَلَا جَانٌّ (٣٩) تُكَذِّبَانِ (٤٠) وَالْأَقْدَامِ (٤١) تُكَذِّبَانِ (٤٢) الْمُجْرِمُونَ (٤٣) حَمِيمٍ ءَانٍ

(٤٤) تُكَذِّبَانِ (٤٥) جَنَّتَانِ (٤٦) تُكَذِّبَانِ (٤٧) أَفْنَانٍ (٤٨) تُكَذِّبَانِ (٤٩) تَجْرِيَانِ (٥٠) تُكَذِّبَانِ (٥١) زَوْجَانِ (٥٢) تُكَذِّبَانِ (٥٣) دَانٍ (٥٤) تُكَذِّبَانِ (٥٥) وَلَا جَانٌّ (٥٦) تُكَذِّبَانِ (٥٧) وَالْمَرْجَانُ (٥٨) تُكَذِّبَانِ (٥٩) الْإِحْسَانُ (٦٠) تُكَذِّبَانِ (٦١) جَنَّتَانِ (٦٢) تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) تُكَذِّبَانِ (٦٥) نَضَّاخَتَانِ (٦٦) تُكَذِّبَانِ (٦٧) وَرُمَّانٌ (٦٨) تُكَذِّبَانِ (٦٩) حِسَانٌ (٧٠) تُكَذِّبَانِ (٧١) فِي الْخِيَامِ (٧٢) تُكَذِّبَانِ (٧٣) وَلَا جَانٌّ (٧٤) تُكَذِّبَانِ (٧٥) حِسَانٍ (٧٦) تُكَذِّبَانِ (٧٧) وَالْإِكْرَامِ (٧٨)

وكأنما نسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية في انسجامه، واضطراد نسقه، واتزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا، ونبرة نبرة، كأنها توقعه توقيعا، ولا تتلوه تلاوة... وما ذلك إلا لترتيب حروفه باعتبار أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير..[٩]

إنه الصفاء الموسيقي للنظم القرآني، أو هو بتعبير آخر: خلوص الوحدات الموسيقية، في التركيب اللغوي القرآني، من الخلط الموسيقي والاضطراب في الإيقاع بحيث تأتي صافية، واضحة الحدود سهلة سلسة.... وإننا إذا أضفنا إلى هذا مسألة الفواصل القرآنية، بخصائصها

البلاغية؛ فإن للعربي الذي نزل عليه القرآن أن يتساءل عن نوع هذا الأداء القرآني، شبيه به الشعر، فهل هو شعر؟! لكنهم يعرفون الشعر كله رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه... وهو ليس إلى شيء من كل ذلك، فما هو بالشعر!

حقا إن موسيقى التفعيلة تأتي في الشعر صافية خالصة، ولكنها في القرآن الكريم تأتي أكثر صفاء وأشد خلوصا. ولعل هذا هو ما دعاهم لأن يصفوا القرآن الكريم بأنه شعر، ولم يكن الشعر عندهم مرذولا هزيل المكانة بل كان مكرما أشد تكريم، مرفوعا غاية الرفعة. إنهم لم يريدوا أن يضعوا من قدر القرآن بوصفهم له بالشعر، فهم يعرفون أقدار الكلام، وإنما أرادوا أن ينفوا عنه أنه وحي من السماء، فهو إذن من قول البشر، كما يحكي عنهم القرآن في سورة النحل: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ [الآية] (١٠٣)، وفي سورة المدثر: إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)، وهو ليس من قول البشر فحسب، بل من أفضل قول البشر، إنه شعر! ولكن شاهدا من أكثرهم معرفة بقول البشر، وأمكنهم معرفة بالشعر يشهد أنه: " ما هو بقول البشر ".[10]

# إيقاع التقرير

وأما عن إيقاع العودة إلى آية التقرير أو التذكير بنعم الله وآلائه البينة: ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) مرة بعد مرة، فهو إيقاع تستريح له النفس، وتتطامن إليه، وتترقبه في أماكنه من السورة الكريمة، وكأنها تعرف مواقعه، أو كأنه جزء من بنية النفس ذاتها، وليس جزءا من بنية النص فحسب، جزء من إيقاعها، أو من إيقاع الوجود فيها. هذا الإيقاع الذي يتسارع مع نهاية السورة، حتى لتكون العودة عقب كل آية[١١]... وكأن الشكر مهما كثر فلن يواكب تلك النعم التي تتلاحق في غزارة تتعذر متابعتها، بل تستحيل.

والذي يظهر لنا من متابعة تلك العودات ثلاثين مرة في السورة، بعد المرة الأولى، أنها تأتي في أماكنها لتؤكد الفصل بين صور الآلاء المتتابعة، والنعم المتوالية على الإنسان. وهذا أمر عرضنا لطرف منه من قبل في بحث الزمن، حيث كانت المفارقات الزمنية هناك تدل على إرادة إفراد كل صورة من صور الآلاء وحدها، فكل صورة هي آية كبرى، تستحق الوقوف أمامها منفردة، والتفكير فيها وحدها، ومن ثم شكرها، بإرجاع الفضل في إيجادها إلى الخالق تبارك وتعالى وحده.... وهنا نجد هذا الإيقاع يقوم بدور الفصل بين هذه الصور، بل يفصل حتى بين أجزاء

الصورة الواحدة، كما نرى في قوله تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)... (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢)... (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤)... (٢٥) فنحن هنا مع نعمة واحدة، نعمة الإرسال المقيد للبحرين، وهذا القيد سبب لإخراج نعمة أخرى هي: اللؤلؤ والمرجان.. إنها صورة واحدة عناصرها البحر ومتعلقاته، من لؤلؤ ومرجان وسفن.. هذه الصورة الواحدة تتخللها آية التذكير ثلاث مرات، تفصل بين عناصرها، مؤكدة تعدد الفروع لأصل النعمة الواحدة، فهو سبحانه أرسل البحرين وتركهما يلتقيان، وجعل بينهما حاجزا فلا يبغي أحدهما على الآخر، وتبقى بيئاتهما المتباينة الصفات متمايزة، مما يسمح لكائنات أكثر باختيار بيئتها المناسبة، فهذا فرع من الأصل. وفرع آخر هو اختيار البحر للتذكير بالنعمة، حيث يغطي الماء حوالي ٧١٪ من مساحة سطح الأرض بينما تمثل اليابسة حوالي ٢٩٪ فقط، ولولا ذلك التوزيع المعجز للماء على سطح الأرض، وفي كل من قشرتها، وتربتها وغلافها الغازي... لكانت درجة حرارة الأرض حارقة بالنهار، ومجمدة بالليل... ولعل هذا ليس فرعا واحدا بل فروعا كثيرة، ونعما عديدة، ربما لم يتوصل العلم إلى كثير منها، كما يقول الدكتور زغلول النجار،

إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ولم تدون في كتاب قبل منتصف الأربعينيات من القرن العشرين.[١٢]

وحتى الآن لم تنته الصورة الخاصة بالبحر وآلائه، فكما أن ثم نعما تحت سطحه، فهناك أخرى فوقه، وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) وهي نعمة كبرى من نعمه، وآية عظمى من آياته، يظهر فيها معنى الرحمة الذي تمكن له السورة، وتتحدث به من أول آية. ويشير الرازي إلى هذا المعنى بقوله: لا شك أن الفلك في البحر لا يملكه في الحقيقة أحد إذ لا تصرف لأحد في هذا الفلك وإنما كلهم منتظرون رحمة الله تعالى معترفون بأن أموالهم وأرواحهم في قبضة قدرة الله تعالى حتى إذا خرجوا نسوا كل هذا. والله تعالى يقول في كتابه: ( فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) [العنكبوت][١٣].

وتأتي هذه العودة كذلك في الحديث عن هول القيامة، تتلاحق الفواصل، بآية التذكير، بعد كل آية، تحمل روح التخويف والترهيب من هول ذلك اليوم وما سيكون فيه من مواقف الذل والهوان الذي سيكون من نصيب المكذبين المجرمين، بدءا من ذلك الإبعاد المهين حتى في

السؤال عن الذنوب، ثم الأخذ بالنواصي والأقدام، ثم الطواف بين جهنم، التي كذبوا بها وبين حميم آن، يقول تعالى: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧)... (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)... (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١)... (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤)... (٤٥).

فتأتي الآية مرة بعد مرة للتخويف والترهيب من هول ذلك اليوم، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فهل تكذبون بآياته التي سبق تقديمها من قبل ؟! أم تكذبون بنعمه التي تغمركم في كل وقت وحين ؟! أم تكذبون بما يذكركم به من شأن القيامة وما سيكون فيها لتحترزوا من هوله وتقوا أنفسكم شره وشر ما فيه ؟!..

وهذا الفصل نجده أيضا، وبكيفية أكثر وضوحا، في رحلة الجنة ووصف ما فيها: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)... (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨)... (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠)... (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)... (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤)... (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦)... (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨)... (٥٩)

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)... (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢)... (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤)... (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦)... (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)... (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠)... (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)... (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤)... (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦)... (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨). فيأتي هذا الفصل بآية التذكير ستة عشر مرة، منها ثمانية في الجنة الأولى، وثمانية في الجنة الأخرى.

هذه العودة تحمل روح الإغراء البلاغي، وتجيء بعد كل آية في ثبات إيقاعي يحفز إلى العمل للجنة الأولى، أو للجنة الأخرى.

## إيقاع التقابل

ونلاحظ وجود إيقاع آخر، يحدثه التقابل في النص، بين الكوني والكوني، وبين الكوني والأرضي، وبين الدنيوي والأخروي... تقابل بين: الشَّمْس وَالْقَمَر (٥) في السماء، وبينهما وبين: النَّجْم وَالشَّجَر (٦) في الأرض.

وبين الآيات: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيـزَانَ (٧) أَلَّـا تَطْغَـوْا فِـي الْمِيـزَانِ (٨) وَأَقِيمُـوا الْـوَزْنَ بِالْقِسْـطِ وَلَـا تُخْسِـرُوا الْمِيـزَانَ (٩) الآيـات الثلاث جميعا في هيئتها الكونية، والآيات: وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَـةٌ وَالنَّخْـلُ ذَاتُ الْأَكْمَـامِ (١١) وَالْحَـبُّ ذُو الْعَصْـفِ وَالرَّيْحَـانُ (١٢) الآيات الثلاث جميعا في هيئتها الأرضية المعيشية.

وبين: الْمَشْرِقَيْنِ والْمَغْرِبَيْنِ (١٧).

وبين: فَانٍ (٢٦) و: يَبْقَى (٢٧).

وبين: السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (٢٩- ٣٣).

وبين: النَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١).

وبين قوله تعالى: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِـي يُكَـذِّبُ بِهَـا الْمُجْرِمُـونَ (٤٣) وقوله: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)...

هذا الإيقاع الذي يراوح بـين الـنعم الكونيـة، والـنعم الأرضـية، والنعم الدنيوية، والنعم الأخروية.. يعظم من شأن تلـك القـدرة القـاهرة المسيطرة على الكون كله، وعلى كل ما فيه ومن فيه.. فهي تسير الأفلاك

في دقة... كما تيسر الأرض وما فيها للمخلوقات... وكلها لمسات رحمة من الرحمن.

ويتكامل هذا الإيقاع في جزاء الآخرة، ومع نعيمها الذي أعده الله لمن اتقاه، وخشي مقامه: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان (٤٦)... (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَان (٤٨)... (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَان تَجْرِيَان (٥٠)... (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَان (٥٢)... (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُش بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْن دَان (٥٤)... (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) ... (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨)... (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَان إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٦١). فلمن خاف مقام ربه جَنَّتَان، متناظرتان، متقابلتان، كلتاهما ذَوَاتَا أَفْنَان، وفي كلتيهما عَيْنَان تَجْرِيَان، وفِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَان... إذا نظر الناظر عن يمينه وجد ما يسره، وإن نظر عن شماله وجد مثله يسره، وهو بينهما- مُتَّكِيء عَلَى فُرُش بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْن منه دَان، وعنده قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ- مطمئن آمن من خوف الفقد الذي يملك كل نفس على ما لها لو كان شيئا واحدا مفردا تفقد بفقده كل شيء، فهما جنتان لا جنة واحدة؛ زيادة في كمال النعيم وقرار النفس.

وتبقى هذه الزيادة في كمال النعيم وقرار النفس، التي تبعثها صيغة التثنية، ما بقينا مع الجنتين الأوليين، فهما أرفع منزلة. ثم: وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) لا يبقى لهما إلا ( عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) وتختفي من ثم صيغة المثنى، ويختفي معها الشعور الأول بفائض النعيم وزيادة قرار النفس.. إن هاهنا مرتبة، وهنالك مرتبة أخرى أعلى وأعظم. و: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ؟!

## صيغ السرد

يبدأ النص مع صيغة الخطاب المسرود، ويتكفل بتقديم الخبر فيه صوت علوي، يأتي من خارجه، يخبر عن: الرَّحْمَن (١) أنه: عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) و: خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) و: عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) وجعل: الشَّمْس وَالْقَمَر بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْم وَالشَّجَر يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧).

فيبدأ الآية الأولى من السورة باسم كريم: الرَّحْمَن (١) لفظة واحدة تتنوع وجوهها الإعرابية، وتتكاثف حولها احتمالات المعنى، بين أن تكون تتمة لما جرى الوقوف عنده في آخر آية من السورة السابقة،

سورة القمر، وما كان ثم من ترهيب وتخويف: فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ(٥٥) صاحب الهيبة والعظمة، العزيز، الشديد، المنتقم، المقتدر.. الذي هو، مع كل ذلك: الرَّحْمَنُ (١)، كما تفتتح به السورة هنا، فيكون التطمين والتأمين لعباده المؤمنين، بعد التخويف والترهيب للكفار المكذبين.

أو أن تكون لفظة: الرَّحْمَن (١) خبرا لمبتدأ موجود بمعناه وغير موجود بلفظه، والتقدير: الله الرَّحْمَنُ، أو: هو الرَّحْمَنُ.

أو أن تكون ردا على من قالوا: ( إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ) [النحل ١٠٣].

أو جوابا عن قول من قالوا: ( وَمَا الرَّحْمَنُ ) [الفرقان ٦٠].

أو تكون: الرَّحْمَنُ (١) هي آية الرحمة المعجزة؛ فإن من وجوه الإعجاز المعلومة في كتاب الله الكريم أن أوائل السور قد تأتي في أحرف مقطعة، إشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز يتألف من جنس هذه الأحرف. وهنا تأتي لفظة: الرَّحْمَنُ (١) تقوم آية وحدها، وتحتل مكانا شبيها بمكان هذه الحروف المقطعة في أول السورة، وتغلفها، من ثم، تلك الروح التي تغلف الحروف المقطعة، روح الإعجاز، التي يتمثل بعض

منها في هذا الثراء المعنوي الذي يدور حول الآية، اللفظة الواحدة الكريمة: الرَّحْمَن (١)، التي تقف وحدها مفجرة لطاقات معنوية ونفسية هائلة.

ويتمثل بعض منها في الاسترجاعات الكثيرة المتتالية إلى هذه الآية كلما تقدمنا في النص حتى آخره. استرجاعات يتسبب في بعضها ضمير يعود على الرَّحْمَن (١)– كما سيأتي ذكره في بحث الرؤية السردية– أو يتسبب في بعض آخر منها معنى الرحمة التي يحملها النص في كل آية يعرضها، فكل الآيات والنعم إنما يمنحها الرحمن برحمته رحمة منه بخلقه.

عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) جملة فعلية، تأتي خبرا للفظة الرحمن في الآية السابقة، هكذا على وجه الإطلاق، دون تحديد للمفعول الثاني بجبريل عليه السلام، ولا بغيره من الملائكة، ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم. فهي نعمة من نعمه، بل هي كبرى النعم التي أنعم الله بها على خلقه، وهو تعالى جعلها مما أنعم به على الجميع من إنس وجن دون تخصيص أو تقييد، وكأنها صارت جزءًا من تكوينهم، أو ملكة من ملكاتهم، ليسألهم عنها بعد ذلك: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ويحاسبهم عليها يوم الحساب.

ومازال السرد يأتي من طريق الصوت الخارجي، وما زال يخبر عن الرحمن الذي: خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) علمه الإنسان على إطلاقه كذلك، ودون تخصيص لأحد دون أحد. ومن رحمته كانت: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) نعم كبرى متتابعة، يقدمها إلينا الصوت من خارج النص، صورا من رحمة الرحمن بخلقه، علينا أن نلتفت إليها، وأن نقدرها، وأن نشكرها.. تأتي كلها بصيغة السرد واحدة بعد أخرى، حتى يصل إلى آية وضع الميزان (٧)، التي تتميز بميزة مختلفة، وأهمية خاصة، هذه الأهمية التي جعلت لفظة الْمِيزَان ذاتها تأتي ثلاث مرات متتالية، بل جعلت الصيغة السردية تتحول إلى نمط آخر.

فمع الآية الثامنة نتحول عن صيغة الخطاب المسرود إلى صيغة الخطاب المعروض، الذي يتكفل به صوت جديد، تتحول معه صيغة الخبر إلى الإنشاء، وتبدأ من ثم علاقة جديدة، بين الصوت المتحدث والمتلقين. فبعد أن كانت كل علاقة الصوت بالمتلقي هي السرد ونقل الخبر، صارت الآن علاقة تتسم بالاهتمام من قبل المخبر، حين يحذرهم من مغبة الطغيان في الميزان: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) آمرا إياهم بإقامة الوزن بالقسط، وناهيا لهم عن خسران الميزان: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا

تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) كل هذا يشير إلى أهمية كبرى لهذا الأمر.. مع كل هذا الاحتفاء الظاهر به، ومهما كان المراد بالميزان، سواء أكان يراد به العدل، حيث أخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) قال: العدل. وأخرج كلاهما عن قتادة رضي الله عنه في قوله: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) قال: اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك وأوف كما تحب أن يوفى لك، فإن العدل يصلح الناس. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى رجلا يزن قد أرجح، فقال: أقم اللسان كما قال الله: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ.

أم كان المراد به التوازن الكوني، فيما يرجح تمام حسان، هذا التوازن الذي يكمله وجود العدل، سواء مع هذا التوازن الكوني بعدم الطغيان فيه بخلخلة ميزانه، أم مع بقية الخلق بعدم ظلمهم والجور على حقوقهم التي جعلها الله لهم. ففي كلا الحالين تتجلى رحمة الله بخلقه، وتتأكد هذه الرحمة، ويتأكد اهتمام الرحمن بخلقه في هذه الآيات الثلاث، فهو تعالى وضع الميزان رحمة بهم، وهو وضعه لهم خاصة، بدليل الأمر والنهي في الآيات.. ثم إنه تعالى أكد على الأهمية

العظمى لهذا الأمر من خلال إعادة لفظة الْمِيزَانِ ثلاث مرات، وأكد عليها كذلك من خلال التحول في الصيغة.

وبعد ذلك يعود السرد مرة ثانية، ويعود نقل الخبر عن الرحمن، من خلال ذلك الصوت الخارجي، الذي يقدم لنا صورا من نعم الرحمن وآلائه التي جعلها لخلقه: وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) نعم كبرى، تستلزم فكرا، وتتطلب شكرا.

وهنا نصل إلى آية التذكير بالتقصير في جانب الشكر على كل تلك النعم؛ فيعود الصوت المهتم بالمتلقي مرة ثانية، الصوت الناصح، الباحث له عن الخير، يعود مع صيغة الخطاب المعروض مذكرا المتلقي بأن كل تلك النعم، التي أنعم بها الرحمن على خلقه، تستلزم شكرا يحفظها عليهم، وهي نعم بينة، وقد بلغت حدا لا يمكن معه لمخلوق، مهما كان موقفه العقدي، إنكارها: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣).

ومن ثم يُستأنف السرد من جديد، ويعود نقل الخبر، يتخلله صيغة الخطاب المعروض الذي يتكفل به الصوت المعني بأمر المتلقي، يذكره بنعم الله وبوجوب شكرها وعدم كفرانها والتكذيب بها، مرة بعد

مرة: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)...

ويستمر هذا التراوح بين الصوتين حتى الآية الثلاثين: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) التي يأتي فيها خطاب المتلقي في صيغة العرض، من خلال الصوت الآخر في النص الذي يأتي منذ البداية موجها إلى الخير، ناصحا، ومذكِّرا بوجوب شكر نعم الرحمن... ثم من بعد الآية الثلاثين نبدأ في تمييز هذا الصوت الآخر، الذي كان يأتي مبديا اهتماما بالمتلقي، وكنا نصفه بأنه مهتم بالمتلقي فحسب، حيث كان يأخذ صيغة قريبة الشبه من صيغة السرد الخارجي، فكان يبدو وكأنه تحول شكلي للصوت الخارجي من حكي الخبر إلى خطاب المتلقي.. وهو في كلا الحالين آت من خارج النص، لكننا هنا، وفي صفاء شديد، نجد أنفسنا مع صيغة الخطاب المعروض الذي يتكفل به صوت من داخل النص، صوت فاعل فيه، وفي أحداثه، يتحدث بضمير العظمة والهيمنة، ويظهر للمرة الأولى، معلنا عن ذاته ومميزا قدرته، في هذا الوعيد الرهيب:

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) وسواء كان النفوذ نفوذ الجن يسترقون السمع، أم كان نفوذ الإنس يستكشفون الكون، أم كان نفوذ هرب من أمر الله وقدره... فهو يحتاج ضرورة إلى سلطان، والسلطان ليس إلا من المخاطِب المتحدث بضمير العظمة، هو وحده الذي يملكه، وهو وحده الذي يمنحه من شاء متى شاء.

ومن هنا يتعين علينا أن نعود مرة أخرى إلى صيغة الخطاب المعروض السابقة التي تعرفنا عليها في الآيات السابقة: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)- فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)- كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)- (٣٠)- نعود إليها لنراها من خلال هذا الكشف الجديد، الذي عرفنا فيه أن صاحب صيغة الخطاب المعروض، ليس هو الصوت المهتم بالمتلقي فحسب، بل هو صوت الفاعل في النص، المهيمن، المتصرف فيه بمشيئته وقدرته، هو صوت الحق جل وعلا صاحب النص.. هو الحريص على خلقه، المهتم بشئونهم، وبهدايتهم إلى ما فيه خيرهم، وصلاح شأنهم، ومن ثم كان التركيز على أمور بعينها، من

خلال تلك الصيغة المميزة في النص، صيغة الخطاب المعروض: الأول- عدم الطغيان في الميزان، والأقرب فيه تأويل تمام حسان، الذي مر بنا، من أن المعنى- والله تعالى وحده أعلم بمراده- هو الحفاظ على التوازن الكوني، وعدم الطغيان فيه بما ينقضه. والثاني- إقامة الوزن بالقسط وعدم الوقوع في الظلم بخسرانه ونقصه، مما يترتب عليه النقض في الميزان الرئيس الذي يقوم عليه الكون كله، ميزان العدل، تأويلا لقوله تعالى: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧). والثالث- فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣١ مرة) تذكيرا بوجوب شكر المنعم على نعمه... والرابع- كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) وحتى في حال الفناء، فهناك تكريم خاص للإنسان رحمة من الله تعالى به، فكل من عليها سوف يفنى، والذي سيبقى هو فقط ( وَجْهُ رَبِّكَ ) بإضافة الباقي إلى المخاطَب، إشارة إلى العلاقة الحميمة بينهما، وفي ذلك تكريم له وأي تكريم.

ونصل إلى آيتنا التي حولت مفاهيم كانت قد استقرت: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) ولعل بحث الصيغة سيجعلنا نراجع مفاهيم أخرى، كنا قد توصلنا إليها، وكنا نرى النص يقبلها، حين تحدثنا عن تأويل هذه الآية، وقلنا إن فيها شيئا يحتاج إلى بيان، فهي الآية

الوحيدة، التي يأتي فيها ضمير الجمع الدال على العظمة: سَنَفْرُغُ، وهو يأتي بعد بيان حاجة أهل السماوات والأرض إليه، ويأتي قبل إعلان أن التحرك في الكون إنما يكون بسلطان يمنحه صاحب القدرة ومالك الملك والملكوت، والمتصرف فيه بما يشاء... وكان هذا ترتيبا لتأويل مختلف عما قاله المفسرون، و أن الفراغ فيها قد يكون لشأن آخر، غير التهديد والوعيد، والحساب: قد يكون للرعاية، والهداية، بعد ما نراه من غزو للفضاء، وأن هذا الغزو، فيما وصلوا إليه وفيما لم يصلوا إليه بعد، إنما يكون بأمر من الله وسلطان، يمنحه لهم ليريهم في كل حين جديدا من آياته.

وكنا نراه تأويلا مقبولا للآية، إلى جانب تأويل المفسرين لها مما مر بنا من قبل، ولكن بعد مراجعة الصيغة التي جاء بها النص، وصيغة الآيات المتعلقة بآيتنا موضع النظر، ظهر لنا شيء جديد، يتمثل في صيغة المبني للمجهول التي وجدناها تأتي فقط في حالات العقاب، وفي أحداث القيامة بصفة خاصة: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)- لأنه في ذلك اليوم: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) إشارة إلى أن هؤلاء المجرمين لا يستحقون أي اهتمام، حتى ولو كان اهتماما لفظيا، وفيه ما فيه من ترهيب مرعب في كون

الفاعل في سؤال المذنب عن ذنبه، وفي معرفة المجرمين بسيماهم، وفي الأخذ بالنواصي والأقدام- الفاعل فيها جميعا غير معلوم.. وذلك مما يزيد من هول العذاب.. سواء في حال انتظاره في الدنيا، أم في حال وقوعه في الآخرة.

ومنها كذلك حالة التفكير في النفوذ من أقطار السماوات والأرض دون سلطان من الرحمن، فهنالك، كما يقول النص بصوت السارد الخارجي الذي يتحول إلى خطاب المتلقين، في تحذير الناصح الراغب في الخير لهم: يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) بالصيغة نفسها، والفاعل هنا كذلك غير معلوم، كأن هذا الذي يحاول النفوذ دون سلطان، هين الأمر مستضعف، ومن هوانه وضعفه أنه ليس بحاجة إلى فاعل معين يردعه عن غيه، وإنما يكفيه مجهول مهما كان. ومن ناحية أخرى فإن هذا المجهول يزيد في شعوره بعظم الفعل الذي سيكون لردعه، لأنه يجهل أمره كله، يجهل من يكون، ويجهل مدى قوته، ويجهل متى يفجؤه... ولعل هذا الاشتراك في صيغة البناء للمجهول بين عقاب القيامة، والنفوذ دون سلطان، يحمل دلالة الاشتراك في وجوه كثيرة بينهما، لعل منها زمان الوقوع، ومكانه،

وكأنهما كليهما سيكونان في القيامة، وعند الحساب، كما قال المفسرون عند تفسيرهم للآية الكريمة.

وتبقى ملاحظة نلفت إليها، وهي تتعلق برقم الآية: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) وعلاقته بعدد تكرار آية التذكير والتقرير ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) التي تتكرر (٣١) مرة: فهل هذه العلاقة بين رقم الآية وعدد تكرار الأخرى تشير إلى أن المخاطب في الآية، هما الإنس والجان، وهما اللذان يتوجه إليهما خطاب التذكير ؟...

## تحولات الصيغة

لعلنا نلاحظ الهيمنة الواضحة لصيغة الخطاب المسرود على النص، حيث يبلغ عدد الآيات التي تأتي بهذه الصيغة تسعة وثلاثين آية، بما يمثل نصف عدد آيات السورة، ويبقى النصف الآخر منها، تسعة وثلاثون آية، إذا أخرجنا منها، آية التذكير بالشكر، واحدا وثلاثين آية، تبقى ثماني آيات فقط تأتي بصيغة الخطاب المعروض، اثنتان منها جاءتا في معرض الحديث عن الميزان، وأهمية تحقيق العدل الذي أراده الله في الكون.

ثـم الآيـات السـت الباقيـة نجـد ثلاثـا منهـا تـأتي في منتصـف السورة، في تواصل لا نجده في غيره من المواضع، تبلغ مع آية التذكير سبع آيات متتالية: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)

ثم آية: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣)

وآيتان أخريان:

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)

فهي ثماني آيات، تتحول فيها الصيغة عن الخطاب المسرود إلى الخطاب المعروض، المقدم بصوت قريب من المتلقي، مهتم لأمره... ولا شك أن تحولات الصيغة في تقديم الخبر تحمل دلالات مهمة علينا أن نتنبه إليها، مثلما رأينا عند الحديث عن الميزان، من أن تحول الصيغة

هناك يشير إلى أهمية الموضوع المعروض، وغير ذلك مما مضى. إن هذا التناوب للصيغ يمثل تلوينا مهما في تقديم الخبر، ولعله يشير إلى أمور أخرى غير الأهمية... أمور تتعلق هنا ربما بعقيدة المتلقي، وبحال تلقيه الخبر، فالخطاب المسرود نراه حيث لا يحتاج الأمر إلى مراجعة، حيث يقبل المتلقي ما يساق إليه قبولا حسنا، لا شك فيه ولا تردد فيما يعرض عليه من آلاء الرحمن ونعمه، لهذا نجد هذا الخطاب المسرود مهيمنا عند الحديث عن الجنتين المهيأتين لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، فلعله حديث خاص بالمتقين المؤمنين، الذين قدموا من العمل ما يؤهلهم لهذا الفضل، وهذه المكانة... أما عند خطاب المكذبين المجرمين، فإن الأمر يختلف، وتتحول الصيغة إلى الخطاب المعروض، في مثل قوله تعالى: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) حيث تكاد صيغة تقديم الخبر تكون هي صيغة العرض، التي تعطي مصداقية للخبر، فكأننا نرى جهنم المشار إليها رأي العين، وكأن تكذيب المكذبين بها هو الذي استدعى هذا النمط في تقديم الخبر، وبعد ذلك، في الحديث عن الجنتين، لا نجد هذا النمط، فالذين صدقوا، وخافوا مقام ربهم ليسوا بحاجة إلى شيء من ذلك.

وثم الآيات الست المتتابعة بصيغة الخطاب المعروض (٣٠- ٣٦) ما الذي جعل الرحمن، تبارك اسمه وعز جاهه ذو الجلال والإكرام، يقدم فيها الخبر بذاته: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) متجليا في الخطاب بنون عظمته وجلال قدرته ؟! وما الذي أدى إلى تتابع كل تلك الآيات الست بصيغة العرض ؟! إن ثم خطبا هائلا، دون شك، يكمن خلف كل هذا...

## الهوامش:

١- لأن العمل الأدبي- كما يقول- ليس مصنوعا من كلمات وإنما من جمل تنتمي إلى سجلات مختلفة من سجلات الكلام، ووصف هذه السجلات يمثل أول مهمة على الناقد أن يقوم بها. حيث ينبغي أن نبدأ بمعرفة الوسائل اللسانية التي تتوفر للكاتب، ينبغي أن نعرف خصائص الكلام قبل إقحامه في العمل الأدبي. فذلك ضروري لمعرفة الخطاب الأدبي ذاته **Tzvetan Todorov, Qu'est-ce que le structuralisme ? tome2, Poétique, Paris, Ed. Du Seuil, Coll. Points, 1968, P. 39-40** وتودوروف، الأدب والدلالة، ترجمة محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري (سوريا) ط. ١ط. ١٩٩٦، ص ٨١

٢ - **Tzvetan Todorov, Qu'est-ce que le structuralisme, P.51**

٣- انظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق عبد القادر حسين، نشر مكتبة الآداب، ط١. ١٩٩٦. ص ٣٨- ٣٩

٤- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٢/ ٢٩٠، وابن سنان، سر الفصاحة، ١٣٨. الزركشي، البرهان ١٤٩/١

٥- سيبويه، الكتاب، ٢/ ٢٩٨

٦- محيي الدين رمضان، وجوه الإعجاز الموسيقي في القرآن، دار الفرقان، الأردن، ١٩٨٢، ص ٤٩

٧- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التوفيقية، مصر.. ٢١٦- ٢١٧، وانظر عبد الفتاح لاشين، الفاصلة القرآنية، ١٩٨٢، ص ٤٤

٨- قدم الدكتور السيد خضر، في دراسته حول " الفواصل القرآنية- دراسة بلاغية " إحصاء بالحروف المستعملة في فواصل القرآن ونسب استعمال كل منها. وكانت نتيجة الإحصاء أن حرف النون يمثل أكثر من نصف فواصل القرآن، حيث جاء فاصلة بنسبة ٥١٪ تقريباً. وجاء حرف الميم تالياً للنون بنسبة ١٢,٣٨٪، يليه الراء بنسبة ١١,٠٤٪ ثم حرف الدال بنسبة ٤,٦٢٪ ... [ نسخة إلكترونية منشورة في مكتبة مشكاة الإسلامية ]

٩- انظر، مصطفى صادق الرافعي، السابق ص ٢١٢- ٢١٣، ٢١٥

١٠-انظر، محمد خضر، شعرية النصوص، مقاربات جمالية، دار العلم والإيمان، مصر، ط١، ٢٠٠٧، ص ٢١٨- ٢٢٠

١١- السورة كلها ٧٨ آية، وتتكرر آية التذكير ٣١ مرة، إذن هناك ٤٧ آية تفصلها الآية، يخرج منها ١٢ في البداية قبل ذكر الآية، فيكون عدد الآيات ٣٥ مقابل ٣١ مرة.

١٢-راجع: زغلول النجار، من أسرار القرآن، الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية، قضايا وآراء، جريدة الأهرام، عدد الاثنين ٦ من ربيع الآخر ١٤٢٣ هـ، ١٧ يونية ٢٠٠٢، السنة ١٢٦، العدد ٤٢١٩٦

١٣- الرازي التفسير الكبير ( مفاتيح الغيب ) ٢٩/ ٨٠

# الرؤية السردية

تبقى الأحداث بعد وقوعها مطوية في ثنايا الغيب، ماضيا غير قادر على الظهور مرة أخرى، وتبقى الأفكار محض تصورات ذهنية هائمة في عالمها المجهول... حتى تتلبس أي منهما بإهاب مادي قوامه اللغة، فتعود الأحداث للظهور مرة أخرى، وتتجلى الأفكار في صورة مادية، يمكن أن يتعرف عليها الآخرون.. وهنالك نلتقي بصوت نستطيع تمييزه يتكفل بتقديم الأحداث، أو بعرض الأفكار، هو صوت السارد، أو صوت الراوي، الذي يمثل تقنية سردية يتوسل بها صاحب النص الحقيقي لعرض هذه الأفكار وتلك الأحداث بكيفية مخصوصة من أجل غاية معينة.

ومعلوم بدهيا أن صاحب النص الحقيقي يقف دائما وراء السارد في نصه، يقود خطواته، ويتحدث بلسانه، ويجدر به أن يبقى عند هذا الحد ولا يتعداه، فلا يظهر بنفسه لأجل ما يسببه ظهوره من عوائق في التلقي، من مثل " انتقاصه من وهم الواقعية، وتقليله من الكثافة الانفعالية للتجربة التي يتم تقديمها، عن طريق تشتيت الانتباه إلى عملية السرد...".[١]

ومن هنا نستطيع تعريف السرد بأنه طريقة مخصوصة يتم بها تقديم الخبر، بوصفه منتجا، وعملية بنائية.. حول واقعة، من قبل مرسل سارد، إلى متلق مسرود له.[٢]

## الرؤية السردية

وهذه الطريقة في تقديم الخبر، أو في الرواية يمكن أن تأخذ أشكالا متعددة لا حصر لها، تبعا لموقع الراوي من الأحداث، أو لعلاقته بها، أو بالمروى له. وذلك لأن كل عمل حكائي يستلزم بالضرورة ثلاثة عناصر أساسية، هي: الراوي، والمروي له، والمروي. وموضوع الرؤية السردية يقوم أساسا على وضع الراوي في الحكي، على موقعه الذي يتخذه حيال ما يحكى، وموقفه من هذا المحكي. وهذه الرؤية تتأثر كذلك بطبيعة العلاقة بين الراوي والمروي له، من حيث هما طرفا العملية السردية.

ولقد تعددت النظريات، والمناهج النقدية التي تتبنى دراسة الرؤية السردية، وزاد الاهتمام بها، فيما يقول أصحاب البلاغة العامة، بعد إشارة الناقد الإنجليزي هنري جيمس Henry James إلى أهميتها

في السرد، وكان هذا في أواخر القرن التاسع عشر.. ومن ثم كان على بلاغة الخطاب السردي أن تضعها في اعتبارها.[٣]

وربما يغنينا الآن عن مراجعة كل تلك النظريات والمناهج والآراء، ما نراه عند أصحاب النظرية السردية في فرنسا من رؤية منهجية متكاملة حول هذا الموضوع، وبخاصة عند تودوروف **Todorov** وجنت **G. Genette**... وكذلك عند السيميائيين الفرنسيين أمثال جريماس **Greimas** وبنفنيست **Emile Benveniste** ولينتفلت **Jaap Lintvelt** ...

أما تودوروف **Todorov** فيتبنى التصنيف الذي قدمه جون بويّون **Jean Pouillon** للرؤيات، ويسميها " مظاهر السرد " ويضعها إلى جانب زمن السرد وأنماطه، معتبرا إياها أصول تحليل الخطاب السردي. ويهتم بتوضيح معنى كلمة مظهر ( **Aspect** ) وأنه يستعملها بمعنى قريب من معناها الاشتقاقي وهو " الرؤية " أو " النظرة " وبكيفية أكثر تحديدا يقول: إن المظهر يعكس العلاقة بين ضمير الغائب ( هو ) في القصة، وبين ضمير المتكلم ( أنا ) في الخطاب، أي العلاقة بين الشخصية الروائية وبين السارد. ويستخدم تودوروف عبارة " مظاهر السرد " ليحيل بها على مختلف أنواع الإدراكات التي يمكن التعرف

عليها داخل السرد. فنحن عندما نقرأ عملا أدبيا، لا نتلقى الأحداث التي يصفها تلقيا مباشرا، لأننا في الوقت ذاته ندرك- بشكل أو بآخر- الآثار الوجدانية المصاحبة لها لدى الذي يحكيها[٤]، وهذا الإدراك الداخلي يتخذ أشكالا ثلاثة، هي التي اقترحها جون بويّون تصنيفا لمظاهر السرد:

أ- الرؤية من الخلف ( La vision par derrière )

[ السارد > الشخصية الروائية ]

وفي هذه الحالة يكون السارد أكثر معرفة من الشخصية الروائية، وهو غير مطالب بأن يشرح لنا كيفية اكتسابه هذه المعرفة.

ب- الرؤية مع (المصاحبة) ( La vision avec )

[ السارد = الشخصية الروائية ]

وفيه يتساوى السارد والشخصية الروائية في المعرفة، فهو لا يستطيع أن يقدم لنا تفسيراً للأحداث قبل أن تتوصل إليه الشخصية.

جـ- الرؤية من الخارج ( La vision du dehors )

[ السارد < الشخصية الروائية ]

والراوي هنا يعرف أقل مما تعرف أي من شخصيات الرواية، إنه يستطيع أن يصف لنا ما يمكن أن يرى، أو أن يسمع، لكنه لا ينفذ إلى أي ضمير كان.

أما جنت Genette فيقدم لنا مشروعا جديدا لدراسة المنظور، يحاول فيه أن يتجنب الخلط الذي كان سائدا بين الصيغة والصوت، أي بين من يرى، ومن يتكلم. ومن ثم يتبنى مصطلح تبئير ( Focalisation ) حيث يرى أنه أكثر تجريدا، وبذلك يتحاشى المضمون البصري، شديد الخصوصية، الذي تنطوي عليه المصطلحات الأخرى مثل: رؤية، وحقل، ووجهة نظر.[٥]

وهكذا يطلق على النمط الأول- الذي تمثله الحكاية الكلاسيكية- اسما جديدا هو الحكاية غير المبأرة ( non-focalisé ) أو ذات التبئير الصفر ( focalisation zéro ). والنمط الثاني الحكاية ذات التبئير الداخلي ( focalisation interne ) وأخيرا النمط الثالث، هو الحكاية ذات التبئير الخارجي ( focalisation externe ) التي يتصرف فيها البطل أمامنا دون أن يسمح لنا بمعرفة أفكاره أو عواطفه.[٦]

وتستمر دراسة الرؤية السردية، في هذا الفلك، متراوحة بين تصور بويّون وتصور جنت[7] أو بين الرؤيات والتبئير.

أما تصور أصحاب سيميوطيقا السرد، فالذي يعنينا عندهم هو ذلك التحديد للعناصر الفاعلة في إنتاج الخطاب السردي، حيث يميز جريماس، بالنسبة للعناصر الأولية التي تقتضيها كل عملية قول سردية، بين نوعين من العوامل: عوامل التواصل، وعوامل السرد.. أما عوامل التواصل، فتتأطر خارج القول السردي، مسهمة في إنتاج الخطاب انطلاقا من وجود عنصرين هما عاملا التواصل الأول والثاني، أو السارد والمسرود له.

ودراسة عامل التواصل الأول ( السارد ) تفترض دراسة عملية القول التي تؤدي إلى تحقيق الخطاب. وأول عنصر تقتضيه هذه العملية داخل الخطاب هو وجود القائل، الذي يعد الباث الضمني في عملية القول. والعنصر الآخر في هذه العملية هو المخاطب، أو المتلقي الضمني، ولكل منهما مؤشرات دالة، ومحددات يتضمنها النص[8].

# الرؤية السردية والنص المقدس

وكل ما مر من تنظير لمبحث الرؤية السردية، بما ينطوي عليه من منطقية علمية، يمكن أن يساعد في دراسة أي عمل سردي قام بوضعه بشر، وأن يقدم نتائج مهمة حوله... ولكن حين نقترب من النص القرآني، فإن الأمر يختلف، ونحن بحاجة إلى إعادة النظر، تأدبا مع جلال الحق تبارك وتعالى، وبخاصة في الجانب الاصطلاحي، الذي يتعلق بألفاظ مثل: السارد والراوي والرؤية... وتخلصا من هذا المأزق العقدي، سيكون علينا أن نعيد النظر في المصطلحات السردية لنأخذ منها ما يتناسب مع قدسية النص، حتى ولو استبدلنا بها أسماء أخرى، وصفات تؤدي الوظيفة المطلوبة دون تطاول أو اعتداء. يمكننا مثلا أن نبحث في تحولات الضمير، ومن ثم نبحث العلاقة بين ضمير الغائب ( هو ) في الأحداث، وبين ضمير المتكلم ( أنا ) في الخطاب. وهذا مجمل ما أراده تودوروف فيما مر أعلاه. ولعل الضمير في السرد من أهم الأمور التي تسهم بشكل كبير في تحديد الدلالة، وهو يسهم بشكل كبير أيضا في تحديد نمط الرؤية السردية وخصائصها.

ويمكن أن نعتمد الجهد الذي قدمه جنت ببحث التبئير بدلا من الرؤيات، وإن كان هذا لن يعفينا تماما من الوقوع في بعض ما نحذر الاقتراب منه، وأقله أن التبئير يحتاج ضرورة إلى مبئر ! نسأل الله السلامة والأدب... ولكن حديثه عن الحكاية اللا مبأرة ( non-focalisé ) التي يتولى الإخبار فيها صوت خارجي، يعرض الأحداث بحيادية دون تركيز على شيء بعينه، والحكاية ذات التبئير الداخلي ( focalisation interne ) التي يتكفل بتقديم الخبر فيها صوت داخلي فاعل في النص... كل هذا سيكون ذا فائدة كبيرة في بحث الرؤية السردية في سورة الرحمن؛ حيث يلاحظ أن ثم صوتين رئيسين يتناوبان في تقديم الخبر في نص السورة، صوت يأتي من خارجه، وصوت يتحدث من داخله، بما يعني أن التبئير في النص بين أن يكون داخليا حين يأتي الصوت من الداخل، أو ألا يكون ثم تبئير مع الصوت الخارجي.

ويمكننا التخلص أكثر من كل تلك المحاذير باستخدام مصطلحات سيميوطيقا السرد، عند جريماس بصفة خاصة، في تحديده لعوامل التواصل، التي تتأطر خارج القول السردي، مسهمة في إنتاج الخطاب انطلاقا من وجود عنصرين هما عاملا التواصل الأول والثاني، أو السارد والمسرود له.

حيث تفترض دراسة عامل التواصل الأول ( السارد ) دراسة عملية القول التي تؤدي إلى تحقيق الخطاب. وأول عنصر تقتضيه هذه العملية داخل الخطاب هو وجود القائل، الذي يعد الباث الضمني في عملية القول. والعنصر الآخر في هذه العملية هو المخاطب، أو المتلقي الضمني، ولكل منهما مؤشرات دالة، ومحددات يتضمنها النص[٩].

وعلى رأس تلك المؤشرات، أو المحددات لعوامل التواصل، يأتي الضمير، مما يعيدنا مرة أخرى إلى اقتراحنا الأول المستنبط من تودوروف، الذي رأينا فيه أن ندرس تحولات الضمير ودلالاتها في السرد، وهذا أوفق فيما نحن بصدده، وعندنا، بعدُ، عاملا التواصل السردي، العامل الأول ( السارد، أو صاحب الصوت في النص ) والعامل الثاني ( المسرود له ).. ومن ثم يمكننا الدخول إلى عالم النص.

## الرؤية السردية في سورة الرحمن

يبدأ نص سورة الرحمن مع تقنية الرؤية السردية الكلية، التي ينتقي فيها الصوت حامل الخبر صورا كبرى تمثل الرحمة الخالصة، من

خلال علم كلي ورؤية محايدة، في ذلك الخطاب الكوني الذي يأتي فيه الصوت من خارج النص، من أعماق الكون الفسيح، متوجها إلى أرجائه، إذ ليس ثم مخاطب معين يتوجه إليه الخطاب: الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ [ بحسبانه أو بحسبان منه] (٥) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)- الصوت دائما هو الصوت الخارجي، والخطاب هو الخطاب الكوني، الذي يأتي الصوت فيه من أعماق الكون، حاملا خبر الرحمن ومقدراته في كونه، وقدرته على التصرف فيه بما يشاء. ومشيئته كلها رحمة..

ولكن ذلك الصوت لا يثبت في توجهه على وتيرة واحدة، فثم تحولات تجري عليه، وتقوم بدور كبير في التوجيه الدلالي للنص وجهات مقصودة. فنحن نلاحظ تحوله، مع الآية الثامنة، من الإخبار عن الرحمن وآلائه، من خلال ضمير الغيبة، إلى استخدام ضمير المخاطب، متخليا عن حياديته، ومبديا اهتماما كبيرا بالمخاطَب، حين يلتفت إلى الإنسان ( المخاطب الرئيس بالنص، حتى الآن ) ينبهه إلى وجه عظيم من وجوه رحمة الخالق به، حيث وضع الميزان مع رفع السماء، وشرع لهم الحق والعدل، وأوجبه عليهم رحمة بهم، ليعيشوا في دعة وطمأنينة ورضا وسلام، لا يسخط بعضهم على بعض ولا يفرك

بعضهم بعضا...: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨). وحين جعل العدل ميزانا للحياة التي يرضاها لهم، وفي حب ناصح يوجههم إلى إقامة شرع الخالق ( الرحمن )، وتحقيق إرادته في كونه: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩).

ومن ثم يعود الصوت إلى وضعه الأول، في حياديته، مخبرا عن الرحمن الذي يصرف الوجود بقدرته، ويشمله برحمته، متمما عرض صور الرحمة التي بدأ النص بها، ومن خلال تقنية الخطاب الكوني، يُشهد الكونَ كله على الإنسان وعلى الجان: وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤)..

وما زال الخطاب موجها إلى كل من في الكون وكل ما فيه، وإن كان ثم دلائل مرت تشير إلى الإنسان مخاطبا بالنص: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩). وثم دلائل أخرى تشير إلى الثقلين مخاطبا به، ومخاطبا فيه: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (١٣)، سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣)... لكن الملاحظ أن الصوت تتغير طبائعه مع تغير المخاطب، فهو الصوت المحايد في الخطاب الكوني، وهو يتخلى عن حياديته مع خطاب الإنسان، أولا ( ٨- ٩ )، ثم مع خطاب الثقلين في المرحلة التالية، بدءا من الآية الثالثة عشرة.

ومع ختام رحمات الدنيا، وآلائها، وفصلا بينها وبين آلاء الآخرة، نلتقي مع آية كريمة تجمع بين الحالين،أولا من خلال الصوت الكوني الخارجي المحايد الذي يقرر حقيقة أن: كُلّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) متوجها إلى الكون كله، مخبرا عن فناء كل من فيه... هذا الصوت يتحول، مع تمام الكلام بوصله بما يليه، من الخطاب الكوني الذي لا يحدد مخاطبا على وجه التعيين، يتحول إلى خطابٍ معين في النص، هو الإنسان، أو هو محمد صلى الله عليه وسلم: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) بإضافة كاف الخطاب إلى الرب: ( وَجْهُ رَبِّكَ )، مما يسهم في إحضار المخاطب إلى النص، ومنحه شرف العلاقة بينه وبين ربه الذي لا يجري عليه ما يجري على كل المخلوقات.

إنه الرحمن الذي: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) وإنها نعم الدنيا، التي يعود الضمير فيها جميعا إليه، وفي تعلقها به إشارة إلى رحمته الكامنة فيها، وإلى أن الإنسان مرحوم بها، بتسخيرها جميعا له ولمنفعته، ولولا رحمة الرحمن ما كان له إلى الانتفاع بها من سبيل. كل هذا يأتي عن طريق الصوت الخارجي، الذي يتكفل بتقديم الخبر...

ويعود التحول في الصوت مرة أخرى حين يصل إلى الآية المحور، آية العتاب الجميل، أو آية الشكر المستنفر، أو آية التذكير بالنعم والتقرير بها، أو آية التبكيت والتوبيخ على الإشراك بالله وهو المنعم وحده، أو آية كل ذلك: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) هذه الآية التي يجتمع فيها الخطاب والغياب، خطاب الثقلين وتقريرهم بالنعم المتكاثرة عليهم، آلاء الرحمن، أو آلاء الرب، مستعيدة ذكر رحمة الرحمن مرة بعد مرة، حتى نهاية النص. وفيها كذلك ينضاف الضمير إلى الرب في دلالة على عظيم كرم الرحمن وشدة رحمته بخلقه، فهو ربهما حتى مع كونهما يكذبان.

ثم تأتي تلك الآية الفريدة في النص التي يظهر فيها الصوت الآخر، الصوت الداخلي الذي يتقاسم السرد مع الصوت الكوني

الخارجي: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١)[١] وفيها الضمير الذي يظهر للمرة الأولى في النص، ولا يظهر بعد ذلك، ولكن مجيئه يمثل فاصلا تأخذ الضمائر من بعده منحى مغايرا لما كانت عليه من قبل. فمن قبله نرى هيمنة ضميري الغائب والمخاطب على النص. ونجد الحديث يدور حول الرحمن ونعمه وآلائه، ودلائل رحمته... [ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ(١٥) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ (١٩) (٢٠) وَلَهُ الْجَوَارِ (٢٤) يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ (٢٨) يَسْأَلُهُ... كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)...

ومن ثم يتحول الصوت إلى الداخل، ويتحول الضمير من الغياب إلى الحضور، من الغائب العائد على الرحمن، إلى ضمير العظمة الحاضر المتكلم في النص، الذي يمثل مركز المقام الإشاري فيه: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) وبعدها يتحول شأن الضمائر في النص تحولا كليا.. فتظهر من بعده صيغة المبني للمجهول، ومعها نجد روحا جديدة تسيطر على

النص، قوامها التعجيز، تعجيز الثقلين أن يقدروا على النفوذ من أقطار السماوات والأرض إلا بسلطان من الله: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥)، فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)، يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١).

ثم بعد ذلك ومع نعيم الآخرة لا يعود من ذكر للمبني للمجهول، ويبدأ عرض شائق لنعم الآخرة ونعيمها، وذلك من خلال الصوت الذي يهتم لأمر الإنسان، ويوجهه إلى ما فيه الخير: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨).

نلاحظ فيما مضى هيمنة الصوت الخارجي بتحولاته على عملية الإخبار في النص، بينما يتكفل الصوت الداخلي بحدث واحد فقط، في آية واحدة، هي قوله تعالى: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١)- الصوت الخارجي يتحول من كونه محايدا كونيا، يُشهد الكون على خير الرحمن النازل إلى خلقه، وعلى كفران خلق الرحمن وتكذيبهم وجحودهم الصاعد إليه.. وفي هذا الإشهاد لا يعنيه مخاطب بعينه، فهو

يتوجه بكلامه إلى كل من يسمع. وهذا الصوت الخارجي، من مكانه خارج النص يتحول من حياديته وانفتاحه في توجهه الكوني، إلى مخاطب معين في النص، يهتم به، ويعنيه أمره كثيرا، فيتجه إليه مرة بعد مرة موجها ومرشدا وناصحا، مثلما رأينا في قوله تعالى: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) والآية: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) التي تتكرر إحدى وثلاثين مرة.

وإذا كانت هذه التحولات التي تجري على الصوت الخارجي صاحب الهيمنة على النص، لا تحدث إلا من أجل المخاطب بالنص، الإنسان، أو الثقلان، ومن أجل خير يريده صاحب النص به... فنرى أن نراجع النص مرة أخرى بحثا عن العلاقة بين صاحب النص تبارك وتعالى وبين المخاطب بالنص.

ولكن قبل هذا علينا أن نذكر بأن انفراد الصوت الداخلي بآية واحدة فقط: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) لم يأت اعتباطا في النص ولا عبثا، وإنما له دلالته التي قد ندرك شيئا منها، فيما مر بنا في التأويل،

والزمن والصيغة، وقد يغيب عنا أشياء كثيرة منها، مما جعلنا نقول بوجود أسرار كبرى في هذه الآية، ربما نشعر بها، لكن تأويلها يظل خفيا علينا، لعل الله ييسر القيام به.

# المخاطَب بالنص

## [ المسرود له ]

إن هذا الصوت الخارجي المهيمن، الذي يتكفل بسرد الخبر عن الرَّحْمَن، ويأتي من الأعماق السحيقة للكون الفسيح، كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل، لا يلتقي بمتلق معين من أول الأمر، إنه خطاب كوني يتوجه إلى الكون كله، بكل ما فيه ومن فيه، قبل أن يقصد إلى المخاطب الرئيس: الإنسان، وكأنما يبدأ بإشهاد الكون كله على نماذج كبرى من نعم الرحمن على خلقه من الإنس... عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَان (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَان (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) وفي كل هذا إشارة إلى أن ثم خلقا مخصوصا كريما على الله، قريبا منه، حبيبا إليه، خلقه، وجعل له كل شيء مسخرا لخدمته، ولعيشه، ولرفاهيته..

ويمضي النص حتى الآن دون تكليف له بعمل يقوم به، اللهم إلا أمرا واحدا عليه أن يتبعه، ونهيا واحدا عليه أن يجتنبه: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ودون ذلك له كل شيء نعمة من الله الرحمن.

ثم بعد ذلك يظهر مخاطب آخر، ينضاف إلى الإنسان المخاطب الرئيس بالنص، هذا المخاطب الآخر هو الجان، ومنذ ظهور الإشارة إليه يصبح المخاطب بالنص كلا الإنس والجن معا. وتعرُّفُنا إلى هذا المخاطب لم يأت في النص دفعة واحدة، وإنما تعرَّفْنا عليه أولا في خطاب المثنى، مع الآية الثالثة عشرة من السورة: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)؛ فبعد أن كان الخطاب للإنسان فقط الذي خلقه الرحمن وعلمه البيان، وجعل له ما جعل من شمس وقمر يجريان بحساب دقيق، ورفع له السماء ووضع الميزان، وجعل له الأرض فيها من النعم التي تعينه على الحياة الطيبة الرغيدة... بعد كل هذا يأتي قوله تعالى: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ليتكشف لنا أن الخطاب يُتوجه به إلى مثنى متغاير الصفة، وليس إلى مفرد هو الإنسان، وثني جريا على طريقة العرب في خطاب الواحد بصيغة المثنى؛ وهو ليس موجها كذلك إلى جمع يدل أيضا على الإنسان حال جمعه، كما نرى في قوله تعالى: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ

(٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) فصيغة الجمع هنا تأتي خطابا للخلق من الإنسان.

وللمفسرين في خطاب المثنى هاهنا أقوال، يجمعها الرازي في تفسيره للآية: فالأنام اسم للجن والإنس، فعاد الضمير إلى ما في الأنام من الجنس، والأنام اسم الإنسان والجان لما كان منويا وظهر من بعد بقوله: ( وَخَلَقَ الْجَانَّ ) جاز عود الضمير إليه. وقد يكون المخاطب في النية لا في اللفظ كأنه قال: ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) أيها الثقلان. وقد يكون المراد الذكر والأنثى، فعاد الضمير إليهما والخطاب معهما. أو يكون: فبأي آلاء ربك تكذب، فبأي آلاء ربك تكذب، بلفظ واحد والمراد التكرار للتأكيد. أو لعل المراد العموم، لكن العام يدخل فيه قسمان بهما ينحصر الكل ولا يبقى شيء من العام خارجا عنه فإنك إذا قلت: إنه تعالى خلق من يعقل ومن لا يعقل، أو قلت: الله يعلم ما ظهر وما لم يظهر إلى غير ذلك من التقاسيم الحاصرة يلزم التعميم، فكأنه قال: يا أيها القسمان: ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) واعلم أن التقسيم الحاصر لا يخرج عن أمرين أصلا ولا يحصل الحصر إلا بهما، فإن زاد فهناك قسمان قد طوي أحدهما في الآخر؛ الخامس: أن التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان، كما في المنافقين، وقد يكون باللسان دون القلب كما

في المعاندين وقد يكون بهما جميعا، فالكذب لا يخرج عن أن يكون باللسان أو بالقلب فكأنه تعالى قال: يا أيها القلب واللسان فبأي آلاء ربكما تكذبان، فإن النعم بلغت حدا لا يمكن لمعاند أن يستمر على تكذيبها، السادس: أن المكذب مكذب بالرسول، والدلائل السمعية التي بالقرآن، ومكذب بالعقل والبراهين التي في الآفاق والأنفس، فكأنه تعالى قال: يا أيها المكذبان بأي آلاء ربكما تكذبان، وقد ظهرت آيات الرسالة فإن الرحمن علم القرآن، وآيات الوحدانية فإنه تعالى خلق الإنسان وعلمه البيان، ورفع السماء ووضع الأرض. السابع: أن المكذب قد يكون مكذبا بالفعل، وقد يكون التكذيب منه غير واقع بعد لكنه متوقع، فالله تعالى قال: يا أيها المكذب تكذب وتتلبس بالكذب، ويختلج في صدرك أنك تكذب، ( فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )، وهذه الوجوه قريبة بعضها من بعض، والظاهر منها الثقلان، لذكرهما في الآيات من هذه السورة بقوله: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١)، وبقوله: ( يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ (٣٣) وبقوله: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ (١٥) إلى غير ذلك...[١١]

ولقد جاءت الآية الفاصلة التي تدور حولها أسرار كثيرة في هذه السورة: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) لترفع كل شك في أن المخاطب

بالنص هو: الإنس والجن كلاهما معا، فالثقلان هما: الإنس والجن كما جاء في الصحيح " يسمعه كل شيء إلا الثقلين " وفي رواية " إلا الإنس والجن " وفي حديث الصور " الثقلان الإنس والجن ".

وهما المخاطبان بالقرآن، والمقصودان بهديه وهدايته، والمعنِيَّان بانتهاجه منهجا حياتيا قويما، تكون نتيجته السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة. يقول تعالى في سورة طه: وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)- ويقول في سورة الجن: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١).

وإن كان للطاهر بن عاشور رأي مختلف، لا يرى فيه الخطاب موجها للثقلين: الإنس والجان، يقول: " وقال جمهور المفسرين: هو خطاب للإنس والجن، وهذا بعيد لأن القرآن نزل لخطاب الناس ووعظهم ولم يأت لخطاب الجن، فلا يتعرض القرآن لخطابهم، وما ورد في القرآن من وقوع اهتداء نفر من الجن بالقرآن في سورة الأحقاف وفي سورة الجن يحمل على أن الله كلف الجن باتباع ما يتبين لهم في إدراكهم، وقد يكلف الله أصنافا بما هم أهل له دون غيرهم، كما كلف أهل العلم بالنظر في العقائد وكما كلفهم بالاجتهاد في الفروع ولم يكلف العامة بذلك، فما

جاء في القرآن من ذكر الجن فهو في سياق الحكاية عن تصرفات الله فيهم وليس لتوجيه العمل بالشريعة."[12].

وربما للرأي وجاهته، لكن هناك آيات بينات تشعر بغير ذلك: ففي سورة الأنعام يقول الحق تبارك وتعالى: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠). وفي سورة الذاريات يقول تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦).. فكلاهما مشتركان في التكليف بالعبادة، وكلاهما محاسب على ما قدم في الحياة الدنيا، وليست مسألة الدين بالنسبة إليهم أمرا انتقائيا، أو حسبما اتفق لهم ووافق إدراكهم. فالظاهر من الآيات أن الجن والإنس في أمر الدين سواء، وإذا كان الخطاب القرآني لا يتوجه إلى الجن بالأمر والنهي كلما توجه إلى الإنس، فلعل ذلك من باب التغليب، تغليب الإنس على الجن، كما يجري الأمر في تغليب المذكر على المؤنث، والعاقل على غيره...

ولا شيء في النص يمنع أن يكون المخاطب فيه هما الإنس والجن. كما يقبل النص أيضا أن يكون ضمير المثنى في ( تكذبان ) خطابا لفريقين من المخاطبين بالقرآن، كما يرى الطاهر بن عاشور؛ خطابا " للمؤمنين

والكافرين الذين ينقسم إليهما جنس الإنسان المذكور في قوله (خَلَقَ الْإِنْسَانَ ) وهم المخاطبون بقوله ( أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ) [الآية] والمنقسم إليهما الأنام المتقدم ذكره، أي أن نعم الله على الناس لا يجحدها كافر بله المؤمن، وكل فريق يتوجه إليه الاستفهام بالمعنى الذي يناسب حاله."[١٣].

وهذا اختيار جيد، ولا يرفضه النص، مثله في ذلك مثل كثير قدمه الرازي من قبل. لكن الذي نستريح إليه أن المخاطب في السورة هو الثقلان: الإنس والجن، وربما يؤيد اختيارنا، ترتيب الكلام في السورة، حيث يقول تعالى: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ثم يأتي ما بعدها كالتفصيل لها والتوضيح لما أجمل فيها وأبهم في ضمير المثنى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) وكأن المعنى: أن كل تلك النعم التي سبقت أنعم الرحمن بها عليكم فبأيها تكذب أيها الإنسان، وقد خلقك من صلصال كالفخار، وبأيها تكذب أيها الجان وقد خلقك من مارج من نار... بأيها تكذبان ووجودكما أصلا كان آية منه، بدءا من مادة خلقكما وتحولها المعجز. وكذلك قوله تعالى: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) الذي يأتي من بعده كالتفصيل له والإيضاح: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣)... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥).

وفي هذه الآية التي تكشف لنا عن المخاطَب بالنص: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) نجد أن ثم تكليفا جديدا، ينضاف إلى ما سبق من الأمر بالعدل والنهي عن الظلم، حيث تكشف الآية من خلال بلاغة صيغتها الاستفهامية عن تكليف بما هو ضد التكذيب بآلاء الله، بما يحمل معنى النهي عن الإشراك به، من حيث هو وحده المنعم بها جميعا، والتكذيب بواحدة منها، يعني نسبتها إلى غيره، مما يؤدي إلى الإشراك به في ألوهيته، وهذا أكبر الكبائر. فالتكليف في الآية بالإيمان بالله وعدم الإشراك به.

واهتمامنا بالكشف عن المخاطَب بالنص وتحديد هويته، من الأمور المهمة في التوجيه الدلالي للنص؛ فمن ناحية يمثل المخاطَب في النص عنصرا أساسيا في الخطاب السردي، فالخطاب موجه إليه، ومن ثم يجري بناؤه وفقا لطبيعته التي تقتضي توجهات معينة وأفكارا مخصوصة، تتناسب مع أحواله، أو يكمن فيها خيره، وصاحب الخطاب، تبارك وتعالى، يريد له الخير كله.. والقرآن الكريم إنما جاء كتاب دعوة، وهداية: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) [سورة

البقرة]؛ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) [سورة الأنعام]. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) [سورة إبراهيم]. وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) [سورة النحل]. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) [سورة ص]... وإنه، مع ذلك، آية عظمى من آيات الرحمة: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) [سورة النحل]. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) [سورة العنكبوت].

إنه الكتاب المنير الذي أنزله الله، لذلك المخاطب، فرقانا بين الحق والباطل، يهتدي به إذا أراد الهداية، ويَضل به كذلك إن أراد الضلال، وعلى الإنسان أن يتخير طريقا بعدما تبينت له السبل، إما إلى جنة وإما إلى نار.

فالمخاطب موجود في النص بقوة، بل ربما لولاه ما كان النص، سواء كان النص القرآني، أم نص سورة الرحمن، إنه المرسل إليه الضمني، الذي يمثل عامل التواصل الثاني في الخطاب الذي ينتج أساسا من خلال التفاعل بينه وبين عامل التواصل الأول، ويمكننا التعرف عليه

ورصد الأشكال التي يتجلى فيها، على مستوى السرد، عن طريقين: الأول- من خلال رصد الضمائر التي تختص به، والثاني- من خلال ما يوجه إليه من نداءات أو توجيهات[14].

ويجري التمهيد لظهور المتلقي، في سورة الرحمن، بذكر نعم الله عليه، وآلائه إليه... ثم من الآية الثامنة يبدأ المخاطَب في الظهور: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) فهناك أمور مهمة ينبغي أن يكون على ذكر منها، وألا يغفل أبدا عنها، لما في اتباعها من خير له كبير، فهو هنا يُقصد بها بذاته، بعد أن كان الخطاب يأخذ اتجاها عاما لا يختص به متلق بعينه..

وبعد ذلك يتكرر ظهور الآيات المكرسة لهذا المخاطب، تظهره، وتظهر اهتماما به: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَان (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَان (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَان (٣٥) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٣٦) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)

وتعود الآية: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. منذ تبدأ بالظهور ثلاثين مرة، حتى تنتهي السورة الكريمة.. وكأنها تذكر مرة بعد مرة بنعم الله وآلائه، وتذكر مرة بعد مرةٍ بأنهما إنما يكذبان آلاء ربهما، بإضافة ضمير المخاطب إلى ربه (رَبِّكُمَا) والرب هو المالك، السيد، المصلح، المربي، القيم، المدبر، المطاع، هو الذي يتكفل بتربيتهم.. وفي هذا إشعار بكرامتهما عليه وقربهما منه، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون منهما التكذيب بعد كل هذا ؟!

وفي توجيه نص الآية بصيغته التي جاء عليها إلى المخاطب، ثم أثران يتمايزان بحسب عقيدة المتلقي: فالمؤمن يرى فيها عزا ورحمة ويزداد بها طمأنينة؛ فهو من المصدقين بكل ذلك. والكافر يتلبسه القلق حين تأخذه العزة بالإثم ويسدر في غيه، ويتمادى في تكذيبه ولا يلين مع كل هذا الوعيد، وفي أعماقه هنالك يشعر بعجزه وضعفه أمام قوة الرب وجبروته.. فيحيا هذا التناقض الرهيب بين ضعفه وعناده فاقدا كل شعور بالرحمة أو الطمأنينة...

وإذا كان المخاطَب عنصرا أساسيا في الخطاب السردي، فذلك عائد إلى طبيعة العلاقة بين الصوت الخارجي والمتلقي... ولكي يكتمل الحديث عن الرؤية السردية يتعين علينا أن نرصد علاقات التفاعل

بينهما، وكذا آليات التوجيه والإقناع التي اعتمدها عامل التواصل الأول من أجل التأثير على المتلقي.

## علاقات التفاعل وآليات الإقناع

يمكننا أن نحدد شكل العلاقة التي تربط بين المرسل والمتلقي من خلال مجموعة من المحددات مر بنا شيء منها، لدى التحول في الآيتين (٨-٩) من الخطاب الكوني، الذي يتكفل به الصوت الخارجي، إلى المخاطب المقصود بذاته في النص، حيث عمد إلى توضيح قواعد العدل توضيحا مباشرا إلى المتلقي حين جاء ذكر الميزان، مظهرا بذلك اهتماما بالغا به.

وهذا الاهتمام بأمر المتلقي يعود مرات كثيرة، منذ الآية الثالثة عشرة: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) التي يعود بها الصوت إلى المخاطب ثلاثين مرة من بعد، وفي كل مرة تتأكد رحمة الخالق بخلقه، من خلال إضافة الضمير المذكور العائد على المخاطب إلى الرب (رَبِّكُمَا) فحتى مع التكذيب لا يتخلى الرب عن عبده، بل يظل ينسبه إلى ذاته

اهتماما بأمره، وحسن رعاية لـه... فيشعر المؤمن بالراحة والرحمة، ويشعر المكذب بالخزي وبذل الإبعاد عن رحمة الرحمن.

ومع الإخبار بالفناء الذي سيعم الكون، تبقى العلاقة بين العبد والرب، اهتماما من الرب ورحمة، فالجميع إلى فناء ( كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فحتى مع فناء العبد المؤمن يظل ثم شعور بالأمان يغمر نفسه، شعور يثيره ما كان من إضافة الضمير إلى الرب الباقي: وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ. أما المكذب فله أن يقنط إذ ليس له شيء من ذلك.. فهو الرب، الذي يحتاجه الجميع، ويجيب الجميع إلى مسائلهم اهتماما بهم وبأحوالهم... يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)

ويبقى الاهتمام حتى مع ما قيل إنه تهديد رهيب: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فمع التفرغ لحسابهم ما زال ضمير المثنى ينضاف إلى الرب حاملا روح الرحمة: فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)

ومن رحمته بهم أنه لا يقطع عليهم كل أمل في النفوذ، فهو ممكن الوقوع وليس مستحيلا، إنما وقوعه يكون بسلطان منه: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا

لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣). هذا إذا كان النفوذ في فضاء الدنيا؛ أما إذا كان في الآخرة، عند الحساب، فالرحمة أيضا موجودة، كامنة في شدة التحذير وقسوته ردعا عن السدور في الغي والتمادي فيه... فمن يتمادى بعد أن يسمع قوله تعالى: يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) ويسمع قوله: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)، وقوله: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١)، وقوله: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤)..

كل هذا رادع لكل مكذب لو استمع إليه، ووعاه...

وفي المقابل هناك إغراءات كثيرة تحفز إلى العمل والاجتهاد في العبادة، حين نصل إلى الحديث عن الجنة: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)... بكل ما فيهما.. ( وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) بكل ما فيهما كذلك من نعيم... كل هذا من رحمة الخالق بخلقه.

ومن كل ما مر نستطيع تمييز العلاقة شديدة الخصوصية والتميز، التي يتفاعل فيها عاملا التواصل في الخطاب السردي في سورة الرحمن.. علاقة تجعل دور المتلقي، المسرود له، يتعدى في وظيفته

مجرد استقبال الخطاب، إلى التحرك باتجاه إنجازه على مستوى الفعل المعيشي. فثم، كما قلنا، منهج حياة.. لا يرجى له مجرد التلقي فحسب، بل التلقي والفعل... وتصير العلاقة بين القاريء والنص علاقة اندماج وتوحد يصير بها المتلقي إنسانا قرآنيا لا يقرأ كلمات النص بل يحياها ويحيا بها.

## الهوامش:

١- ديفيد لودج، الفن الروائي، ترجمة ماهر البطوطي، المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢، ص ١٦

٢- انظر، جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة عابد خزندار، المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ص ١٤٥ وما بعدها.

3- Groupe U. Rhétorique générale. Ed. points, p. 187

4-Tzvetan Todorov, Les catégories du récit Littéraire, Communications n°8, éd. du Seuil, coll. Points, 1981, P. 147

5-Gérard Genette, Figures III, Paris, éd. du Seuil, coll. Poétique, 1972, P. 203

6- Gérard Genette, Figures III, P. 206 - 207

٧- ممن سنلتقي بهم بعد جنت: Mieke Bal في مقالها: Narration et focalisation المنشور في العدد التاسع والعشرين من مجلة Poétique ١٩٧٧ ( ١٠٧ - ١٢٧ ) الذي تقدم فيه قراءة لتصور Genette السابق، ومقال آخر بعنوان Le jeu de la focalisation لـ Pierre Vitaux نشر بالمجلة نفسها تعليقا على مقال Mieke Bal السابق، وهذا تماما ما فعله كل من: شلوميت كنعان في كتابها التخييل القصصي، ترجمة لحسن أحمامة ١٩٩٥ و Vincent Jouve في كتابه:
La poétique du roman, Paris, Sedes, 1999.

٨- انظر، عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢، ص ٤٤ وما بعدها.

٩- انظر، عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢، ص ٤٤ وما بعدها.

١٠- نلاحظ أن رقم الآية هو (٣١) فهل ثم علاقة بينها وبين عدد تكرارات آية التذكير الـ(٣١)، أو بينها وبين أول ذكر لآية التذكير في النص (١٣) معكوس (٣١)..

١١- الرازي، التفسير الكبير ( مفاتيح الغيب ) ٢٩/ ٩٨

١٢- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧/ ٤٢٦٣

١٣- المرجع السابق، ١٧/ ٤٢٦٤

**١٤- انظر: عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢، ص ٤٥ وما بعدها.**

# خاتمة

بعد ما مر، نستطيع القول إن النص يمكن إجمال تحولات المعنى فيه في مقولات أربعة:

١- نعم الرحمن على خلقه وموقفهم منها (١- ٣٠)

٢- التهديد (٣١- ٤٠)

٣- العقاب (٤١- ٤٤)

٤- الثواب (٤٦- ٧٨)

نلاحظ أن المقولة الرابعة التي تختص بعرض أشكال النعيم في الآخرة، من جنة الخائف من مقام ربه، والتي من دونها، تحتل المساحة الأكبر بين مقولات المعنى الأربعة (٣١ آية)، وتقترب منها المقولة الأولى. التي تعرض نعم الرحمن على خلقه، في عدد الآيات (٣٠ آية) بينما يحتل كل من التهديد وشكل العقاب جزءا يسيرا في النص، وكأن النعم والإنعام، والتفضل بالآلاء من الرحمن على خلقه، هو المراد من النص، وكأن التحفيز إلى العمل للجنة التي تعرض في النص بتفاصيلها، وبكل ما فيها من نعيم... كأن كل هذا هو المراد من النص

أصلا، وما دون ذلك من تخويف أو عقاب، إنما يأتي في صورة سريعة قبل النعيم ليظهر كمال النعيم الذي يناله صاحبه ومستحقه في الآخرة.

وسورة الرحمن، كما رأينا، بطبيعة موضوعها، وخصائص بنيتها، تنفتح على بقية النصوص القرآنية، وتترابط معها.. فهي سورة، كما رأينا، تعرض لمراحل الرحلة الكبرى بين الدنيا والآخرة، بدءا من مرحلة الخلق، ومرورا بالحياة وما فيها من توجيه ورعاية... ثم الفناء المكتوب على كل الخلائق.. ثم البعث فالحساب.. فالجزاء عقابا لمجرم مكذب، وثوابا لمؤمن مصدق. وهي في كل ذلك تركز على مظاهر الرحمة التي يغمرنا بها الرحمن في كل وقت وحين.. وكل هذا ينطبق على القرآن انطباقه على سورة الرحمن.

ثم هي سورة نزلت، بين صلح الحديبية إلى غزوة تبوك، وهي مدة، فيما يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي، قل فيها القتال، واستوفى فيها الدين أحكامه، أو كاد يستوفيها.[1] فهي مدة، إن صدق حساب الشيخ، صالحة للتفكر في أمر الدين، وتكوين رؤية شاملة حوله، وقد اكتمل، واستوفى أحكامه من ناحية. ومن ناحية أخرى فقد هدأت الأجواء وقل القتال وتفرغ المؤمنون لأمر دينهم... ومن ثم يكون نص

سورة الرحمن نص مراجعة شاملة لما سبق من أمور الدين، يجملها ويلخصها في آن.. ليسد حاجة ملحة في مثل هذا الوقت.

فإذا كان الأمر على هذا النحو، فبها، وإلا[2] فسورة الرحمن هي- كلها، وكما رأينا- آية رحمة، تضيء لنا سراج الهداية لنصل بأمان إلى مقام الرحمة الكاملة. في الجنة مستقر النعيم، بل في الجنتين اللتين وعد الله بهما عباده الذين استعدوا، بصالح أعمالهم، ليوم وقوفهم بين يديه تعالى: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان (٤٦).

وسواء كانت هذه أو تلك فالأمر سيان، والسورة تمثل في الحالين نصا مركزيا، تجتمع له صفات القرآن، وتتركز فيه أصول الدين.. وينفتح من بعد على الكتاب الكريم كله، بلفظه، وبمعناه.

فإذا انفتحنا على الكتاب الكريم، فسوف نجد أن الصفات التي قلناها في حق سورة الرحمن تتطابق كذلك مع صفاته، فهو كله آية رحمة. هو كله كتاب هداية وإصلاح، جاء ليأخذ بأيدينا إلى شاطئ الرحمة الكاملة، وإلى ضفاف الفوز والنجاة؛ لنكون في الدنيا من أهل الله وخاصته المخلصين المهتدين، ونكون في الآخرة من أهل الجنات المكرمين المقربين.

## الهوامش

١- عبد المتعال الصعيدي، النظم الفني في القرآن، ص ٣٥

٢- ليس هناك تحديد دقيق لوقت نزولها، فهي عند العلماء بين أن تكون مكية كلها كما في قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس: إلا آية منها هي قوله تعالى: " يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ " أو تكون مدنية كلها كما عند ابن مسعود ومقاتل..

# المصادر والمراجع

أولا- القرآن الكريم.

ثانيا- الكتب العربية والمترجمة:


- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٠١هـ.
- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٣.
- البيضاوي، تفسير البيضاوي ( أنوار التنزيل وأسرار التأويل ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- بيير مارك دوبيازي، نظرية التناص، تعريب المختار حسني..
- تزفيتان تودوروف، الأدب والدلالة، ترجمة د. محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط١، ١٩٩٦.
- تمام حسان، البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣.

- الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، بتحقيق الدكتور عبد الفتاح أبو سنة، وآخرين، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ.
- ابن جزي الكلبي، تقريب الوصول إلى علم الأصول، القاهرة ١٤١٤هـ.
- جيرار جنيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة، محمد معتصم، وعبد الجليل الأزدي، وعمر حلي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧.
- جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة عابد خزندار، المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي.
- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق عبد القادر حسين، نشر مكتبة الآداب، ط١، ١٩٩٦.
- ديفيد لودج، الفن الروائي، ترجمة ماهر البطوطي، المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢.

- الرازي، التفسير الكبير ( مفاتيح الغيب ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧.
- زغلول النجار، من أسرار القرآن، الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية، قضايا وآراء، جريدة الأهرام، عدد الاثنين ٦ من ربيع الآخر ١٤٢٣ هـ، ١٧ يونية ٢٠٠٢، السنة ١٢٦، العدد ٤٢١٩٦.
- الزمخشري (٥٣٨هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق مصطفى حسين أحمد، دار الريان ط٣، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام، مصر، ط٢، ١٩٨٩.
- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٨٩.
- ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ): سر الفصاحة. تصحيح عبد المتعال الصعيدى، القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.

- سيبويه، الكتاب، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣١٦هـ.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط٢٤، ١٩٩٥.
- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار التراث.
- الشريف المرتضى، أمالي المرتضي.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٤.
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ( تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد وتفسير الكتاب المجيد ) الدار التونسية للنشر.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتوثيق وتخريج جميل صدقي العطار، دار الفكر بيروت ١٩٩٥.
- عبد الفتاح لاشين، الفاصلة القرآنية، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٢.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر، الخانجي، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، بيروت ١٩٨٧.
- عبد المتعال الصعيدي، النظم الفني في القرآن.
- عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢.
- أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، مجاز القرآن، الخانجي.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، إملاء ما من به الرحمن، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، بيروت.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المفيد / بيروت، د. ت.
- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون.
- محمد خضر، شعرية النصوص، مقاربات جمالية، دار العلم والإيمان، مصر، ط١، ٢٠٠٧.
- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- محمد خير البقاعي، آفاق التناصية، المفهوم والمنظور، ترجمة وتقديم، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨١.

- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.
- محيي الدين رمضان، وجوه الإعجاز الموسيقي في القرآن، دار الفرقان، الأردن، ١٩٨٢.
- المختار أحمد محمود الشنقيطي، الترجمان والدليل لآيات التنزيل، الرياض، ط١، ١٩٩٣.
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التوفيقية، مصر، ١٩٩٧.
- مصطفى مسلم، التفسير الموضوعي كشف عن الهدايات القرآنية، دارِ القلمِ، دمشق.
- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر.
- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، دار الفكر.
- أبو هلال لعسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٨٦.

- وحيد الدين خان، الإنسان القرآني، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم، القاهرة، ط١، ١٩٨٥.


ثالثا- الكتب الأجنبية:


- **Gérard Genette, Figures III, Paris, éd. du Seuil, coll. Poétique, 1972.**
- **Greimas A. J. Du sens, éd. du Seuil, Paris, 1970.**
- **Groupe U. Rhétorique générale. Ed. points.**
- **Jean Pouillon, Temps et roman, Paris, Ed. Gallimard, 1993 .**
- **Oswald Ducrot – Jean Marie Schaeffer, Nouveau dictionnaire Encyclopédique des science du langage, Paris, éd. du Seuil, coll. Points, 1995.**
- **Tzvetan Todorov, Les catégories du récit Littéraire, Communications n° 8, éd. du Seuil, coll. Points, 1981.**
- **Tzvetan Todorov, Qu'est-ce que le structuralisme ? tome2, Poétique, Paris, Ed. Du Seuil, Coll. Points, 1968.**



# المحتويات